

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

ساقي العطاشى

إذا الجذع يبس، وأَجْرَدَ الغصنُ،

وجفَّ الورق، وصار كالهشيم المحتضر...

عن سقياها لا تكفّ، وعن ريّها من دمعك لا تتوقف...

فربما الجذع ارتوى؛ والغصن أورق، واخضرَّ وأغدق...

وإذا بكل يابس، من رِيّها يشرب، ويخضرُّ ويخصب...

لا تقل: حلمٌ وخيال، وَوَهْمٌ ومُحال...

فكم قرَّب الجِدُّ بعيدًا، وَحَوَّلَ الخيالَ واقعًا ملموسًا!

* * *







ندوة "ونحن نبني حضارتنا"



مجلات الأطفال في العالم الإسلامي



الوقفة النبوية

بين يدي الله وحيال الأحداث

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٢٩
السنة السابعة
(مارس – أبريل) ٢٠١٢

سواكن الروح والفكر

لا زال الساكن الفكري والروحي لدينا، في حاجة إلى رجّات تحرك موجه وتثير هامده، وتستنهض نائمه، وهذا ما يفعله محمد فتح الله كولن في منفتح كل عدد جديد من "حراء"، ويكاد يكون قلمه مكرّسًا لهذه المهمة العظيمة التي نرجو أنْ ينتبه إليها المعنيّون بشؤون الفكر الديني المعاصر. ففي مقاله "الوقفة النبوية بين يدي الله وحيال الأحداث" واحد من روائعه في هذا الشأن. وعلى الرغم مما كُتب عن هذا الرجل ومما تُرجم من أعماله الفكرية والوجدانية إلى العربية، غير أنه لا زال مجهولاً وغير مفهوم عند الكثير من النخب من المثقفين والمفكرين، فهو جدير أن نقف عنده مليًّا وأن تتدارس أفكاره وتطبيقات هذه الأفكار في الواقع المعيش.

و"عماد الدين رشيد" يكتب عن "البُعد الدرامي في القصص القرآني" في تحليل عميق واستعراض ممتع للعمل القصصي في القرآن الكريم مشيرًا إلى التصوير الفنّي المعجز في هذا القصص، وكيفية اعتماده في تشكيلات القصة الدرامية التي يطالعنا بها القرآن في آيه الكريم.

و"الشاهد البوشيخي" رجل الفكر الوقور وصاحب الإدراك العميق لمرامي القرآن في الإنسان والحياة، فإنه يلتفت اليوم التفاتة جديرة بالاهتمام، إلى الوظيفة النسائية ومركزيتها ومحوريتها في حياتنا ووجودنا البشري.

وعن الهَرَم، هذا الشيء المخيف والذي نحاول جميعنا أن نتحاشاه ونتخطاه، وكثيرًا ما نتجاهله، يكتب عنه "عارف سرسيلماز" متسائلاً: لماذا نهرَم؟ وكيف؟ وهو مقال علمي يبين فيه الكاتب عوامل الهرَم وكيفية التخفيف من وطأته علينا حين نهرم.

وفي القصة القصيرة يكتب "عبد الكريم عكيوي"؛ "العِقد الأحمر"، وهي قصة واقعية وردت في كتب التراث فصاغها الكاتب صياغة أدبية غاية في الإمتاع.

و"عبد الإله بن مصباح" يتحدث في مقاله عن القرآن الكريم وآليته في استنهاض العقل وتحريكه، ليقوم بعملياته الإدراكية لما يحيطه من مظاهر. فللقرآن منهاج في العلوم سبق بها مناهج العلم الحديث وطرائق الاستدلال والتوثيق.

وفي الجزء الثاني من مقاله عن "مفارقة الإنسان والتقدم"، يكتب "عماد الدين خليل"، حيث يلتقي الوحي والوجود في فكر النورسي، وتداعيات ذلك على مجمل كتاباته في رسائله.

والكاتب المبدع "خالد الصمدي" يكتب عن مجلات الأطفال وعن دورها الرسالي في صياغة عقل الطفل ووجدانه، وعن انتقال هذه المجلات من ورقية إلى رقمية في كثير من بلدان العالم المتحضر، فقد غدت الأرقام مفاتيح يمكن إدارتها في أقفال المعرفة لتكون جاهزة للعطاء في كل وقت.



المحتويات



فتح الله كولن

الوقفة النبوية
بين يدي الله وحيال الأحداث

إن من نذر نفسه للحق تعالى واستمد العون من الله ﷻ، يمضي في طريق وظائفه ومسؤولياته من دون أن ينظرَ إلى الوراء... لأنه يعرف القوة التي استند إليها، ويعرفُ مالكه الذي يعمل هو له وهو مطمئن لصواب هدفه والطريقِ التي يسلكها، وأنه في رعايةِ من لم يتخل عنه -ولو لحظة واحدة- في هذه الطريق ولن يتخلى عنه. فهو -لذلك- لن يقع في تشرذُم فكري أو حسي أبدًا، ولن يكابد تشوشًا أو ترددًا، بل ينكبُّ على أداء ما كُلِّف به في شعور وحساسية مرهفة، ثم ينتظر النتيجة من الله تعالى في اطمئنان مكين... فيهتمُّ اهتمامًا بالغًا بترك التدخل في شأن الربوبية ويحصُرُ حركاتِه وفعالياتِه في ابتغاء مرضاة الحق سبحانه. فيعتبر رضاه جل وعلا ركنًا أساسيًّا وضروريًّا... ولذلك تراه موصَد الأبواب -ما استطاع- حيال كل الأمور التي ليس فيها رضا الله تعالى، وساعيًا إلى تجنُّب رغبات النفس ومطالبِها. فإذا توعرت الطرق يومًا وتشابكت السبلُ، واحلولكت الآفاقُ، ودوَّت أصداءُ الاضطرابِ والقلق، فلن يتشكى عن الطريق التي يسلكها ولن يرتبك أو يتقهقر، بل يستعينُ بالله ويتشبثُ بالسعي والعمل، ويستسلمُ للحكمة الإلهية... ويفعل كما فعل سيدنا نوح عليه السلام حيث رفع يديه ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾(القمر:١٠)، ثم يلتجئ بتمام الإخلاص والصدق إلى حفظه تعالى ورعايته، ويترقب منه ما يمُنُّ عليه من لحظة الفرَج ونقطةِ الخروج.



الانتظار والصبر

وكما أن من العبادة أن يكون الإنسان على طريق الحق جل شأنه، ويُعرِّفَ الناس بالحق سبحانه ويذكِّرهم به، ويقومَ بإرشادِ مَن في الطريق إلى آداب الطريق... فكذلك من العبادة توقُّع كلّ شيء من الله تعالى، والانتظارُ في الأمور التي تتطلب الانتظار مع الصبر على تباطؤِ الزمان بشكل يستنفد الصبر ويسلب العقل... فالمرء قد يحظى بالتوفيق في أولِ حَملة أو حركة أو قيام وشبوب، فيجدُ ما يبتغي، لكن قد يجول ويصول كجواد أصيل فلا يحصل على شيء في الظاهر، لكنه يفوز في النهاية بصبره وإقدامه ونيته.

وأحيانًا تَقطع الحوادثُ الدنيوية والدنيويون الطريقَ أمام الإنسان، وأحيانًا تشتدُّ وطْأَةُ الأحداث المنهمرة فلا يُطاق التصدي لها... فتتعاقب السنوات وتمضي وكأنها "محرَّمٌ" كلها، وتؤدي الطرق إلى "كربلاء" فتنسدُّ وتقف هناك!.. لكن القلوب التي تتلقى أوامر الحق تعالى -رغم ذلك كله- لا تهتز ولا تترنح ولا تتذبذب حيالها؛ فيرون كل حادثة "معاملةً" مرتبطة بإرادة الله المتعالية، ويحتسبون المصائبَ امتحانًا، ويستقبلون الامتحانات في توكل وتسليم، ويُعلِّمون قُطَّاعَ الطرق -الذين لا يرعون ذمة ولا تقاليد- دروسًا في الإنسانية، ويقوِّمون كل حركاتهم وتصرفاتهم في إطار دقة الامتثال للأوامر الآتية من العوالم الماورائية؛ فعينٌ منهم تَرْقُب سلوكياتِ أنفسهم، وعينٌ أخرى ترقُب انفراجَ ذلك الباب المتعالي، ويندفعون -بلا تشتيت لهمتهم- نحو هدفهم الذي هو أسمى الأهداف -جَعَلَنا اللهُ فداءً لذلك الهدف السامي الذي هو مرضاته تعالى- ويتحرزون من التلوث بالتوجه نحو الأغيار ولو بخيالهم.

العبودية لله

إن رجلاً بهذه الأوصاف من أهل الوفاء والصدق، له همٌّ وحيد بدرجة العشق، هو أن يجد اللهَ كلُّ أحدٍ ويتوجهَ إليه ويتخلصَ بالعبودية لله وحده من شتى العبوديات... إنه يطوفُ في الدروب والأسواق، لا يهدأ ولا يسكن... صوتُه ونَفَسه ترجمانٌ لقلبه، فينادي -نداءً لا ينقطع- بأسلوب مفتوح لقبولِ كلِّ وجدان لم يفسد، فيئن وينادي: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الأعراف:٥٩) هذا التوجع هو شيء من نواح النبي نوح عليه السلام... ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾(الأعراف:٦٥) وهذا شيء من صراخ النبي هود عليه السلام... ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الشعراء:١٠٧-١٠٩) وهذه التعبيرات الصادقة الخالصة هو البيان المشترك لدعوة أولئك الأنبياء أجمعين... يقول ذلك ويُسمِع خفقاتِ قلبِه أبدًا، أو يُهرَع لعون الذين يهتفون بتلك النغمات فينادي: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۞ اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ

مُهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ ۞ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ۞ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾(يس:٢٠-٢٥) فيأمر اللهُ تعالى أن يدخل الجنة (وفُسّر بأنه قتل فدخل الجنة شهيدًا) ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۞ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس:٢٦-٢٧) فبهذه الهمهمة والتمتمة يُعلِن عن موقفه تجاه الله وتجاه قومه، (وتَروي كُتُبُ المناقب أن هذه الصرخات القلبية الموازية لأنفاس ملائكة السماء هي للبطل الشجاع حبيب النجار).

وهناك رجل مؤمنٌ من آلِ فرعون مجهولُ الاسم، هذا البطل الهزبرُ الذي يخفق فؤادي كلما سمعتُ صوته الهادر، يبدأ كلامه بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾(غافر:٢٨) ويعني بـ﴿رَجُلاً﴾ موسى عليه السلام... فيدلي بنصائحَ وبياناتٍ بليغة ومؤثرة في الأحاسيس والأفكار الإنسانية كنفخ الصُور، فتملأ الصدورَ خشيةً وتُرعِش وتُرعِد أرواحًا، وتَشرح وتريح أرواحًا، ثم يصرخ -في جُرأةٍ- بما ينبغي أن يقال، ويختمُ كلامه بقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۞ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(غافر:٤٣-٤٤).

رجال العزم والإرادة

لقد ظل رجال العزم والإرادة هؤلاء، صامدين وثابتين حيال تلك الجموع التي تردَّت وهبطت إلى منتهى الطيش والصلف والهوان والغرور والأنانية والحقد والكره والغضب... تلك الجموع التي اعتبَرت مروءتهم وشجاعتهم هذه ضلالةً وسفاهة، وخوَّفتهم بالطرد والتهجير من مساكنهم وديارهم، أو هدَّدت أتباعهم بقطع أرجلهم وأيديهم، أو استخفت بهم واحتقرتهم، أو أساءت الظن بمواقفهم النبوية بأن بعض آلهتهم اعترتهم بسوء، أو أوعدت هؤلاء المرشدين بالرجم، أو هوَّنت من شأنهم دائمًا بقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠).

إن ممثلي الرسالة السامية التي تتطلب شعورًا بالغًا بالمسؤولية وإرادةً مكينة وشخصيةً متينة، يؤدون وظائفهم في اشتياق غامر، لا يعرفون كللاً أو مللاً، وإذ يوفون بوظائفهم بحساسية مرهفة، لا يتدخلون في شأن الربوبية، فلا ينشغلون بحساب النتائج قط، ولا يرجون إلا عناية الرب جل وعلا.

ولكن هؤلاء ردوا عليهم في صوت جهوري: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ﴾(يونس:٧١) هذه الوقفة وهذا الصوت الهادر لنبي الطوفان عليه السلام... ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾(الأعراف:٨٩) وهذا التحدي من خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام... ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ۞ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(هود:٥٤-٥٦) وهذه البيانات تُظهر مواقف النبي هود عليه السلام... ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨) وهذا تحذير بليغ من النبي شعيب عليه السلام. أما ردهم على قولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾(إبراهيم:١٠) فكان: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(إبراهيم:١١-١٢) وهذه وقفة من وقفات أولي العزم من الأنبياء العظام كنوح وهود وصالح وغيرهم عليهم السلام... فحينما وصل الأمر إلى حد لا يطاق، توجهوا إلى الله تعالى بكل كيانهم وقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۞ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الممتحنة:٤-٥) وهذه باقةُ رسائلَ حول التوكل من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى السائرين في الطريق.

وحدة القضية

والملحوظ أن أبطالَ القلوبِ هؤلاء، الذين تمتعوا بإرادة صلبةٍ ومواقفَ حكيمةٍ، حافَظوا جميعًا على مقصودٍ بعينه وساروا على خط واحد والتزموا قيمًا بعينها. فإنَّ ما كان ينعكس على أحاسيسهم وأفكارهم وسلوكياتهم هي أمور بعينها، ووحدةُ القضية والدعوة تَظهر جليًّا في رسالاتهم وتبليغاتهم. وإن تمثيلهم للمهمةِ نفسِها لَجَلِيٌّ واضح مهما اختلفت بلادهم وأزمانهم. وإن أبرز خصائصهم أنهم في كل أفعالهم لم يطلبوا إلا مرضاة الله تعالى، ولم يستعينوا في جهادهم إلا بقدرته وعنايته، ولم يلتجئوا إلا إلى حفظه وكلاءته، ولم يتحركوا إلا باسمه.

أما الوظيفة الأصلية لهؤلاء القُدسِيّين، فهي إنقاذ البشر من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان، وتحفيزُ الأرواح لتصغي القلوبُ إلى الحق تعالى، وكشفُ الذي أمام ستار الأشياء وما وراءها وإراءتُها على حقيقتها حتى تزول الشبهات والشكوك في الأذهان، ونشرُ الأنوار على وجه الوجود ليُقرَأ ككتابٍ، وليُطَّلَع عليه كمَشهر ومَعرض، وليفسَّر كلوحة فنية بارعة، ثم يترجمَ حسب أفق إدراك العصر، وجَعْلُ هذه المسيرة الفانية مَدْرَجًا إلى العوالم الباقية وجِسرًا إليها ومزرعة لها وسُوقًا لشرائها.

ففي معرض البيان لطَرَف من هذه الأمور يقول الله تعالى في القرآن لسيد السادات ﷺ: ﴿الَر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١) ويُعرّفنا بإطار من الأُطُر على رسالة النبوة ودورها. وليس سيدنا محمد ﷺ وحيدًا في هذا الأمر؛ فهو وظيفة كل الأنبياء من لدن أبينا آدم إلى سيدنا موسى ومنه إلى سيدنا عيسى عليهم السلام. وانظر كيف يَربط القرآنُ الكريم الأمرَ في السورة نفسها بالنبي موسى عليه السلام أيضًا قائلاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾(إبراهيم:٥).

بشريّون متميزون

ومع أن ممثلي هذه الرسالة السامية -التي تتطلب شعورًا بالغًا بالمسؤولية وإرادةً مكينة وشخصيةً متينة- مع أن هؤلاء بشر من أمثالنا... لكنهم بشر يختلفون ويتميزون عن غيرهم في قوة عزمهم وإيمانهم، وحِدّة استقامتهم وعلو أمانتهم، وغاية شعورهم بوظيفتهم، وشدة حرصهم على رضا الحق تعالى، وثبات مَواقفهم، وإرادَتِهم حيال المعاصي أبدًا، وولعهم بدعوة الناس إلى الصراط المستقيم، كأنها غريزة فيهم؛ فلا يقر قرارهم ولا يعرفون سكونًا، إلا "الإرشاد"... "الإرشاد"! فيؤدون وظائفهم في اشتياق غامر، لا يعرفون كللاً أو مللاً، وإذ يوفون بوظائفهم بحساسية مرهفة، لا يتدخلون في شأن الربوبية، فلا ينشغلون بحساب النتائج قط، ولا يرجون إلا عناية الرب جل وعلا. يُرجعون الهداية والضلالة إلى الله تعالى -مع قبولِ وجود أثرٍ للإرادة في مستوى "الشرط العادي"- ويعترفون برجوع الأمر إليه كله، ويخضعون لحكمه وقضائه بألف نَفْس ولا بنَفْس واحدة... وكما يرعون الأوامر الشرعية والتنزيلية أدقَّ رعايةٍ، كذلك يتحرون الحِفاظ على الأوامر التكوينية بأعظم العناية. وإن لهم لوقفات وطيدة ومكينة حيال القرآن والكائنات، وأمام مخاطَبِيهم وربِّهم... وهذه هي وقفة "أولي العزم" والمصطفَيْنَ.

وإن همم هؤلاء المصطفَين لَعالية علوًّا بحيث لا هُم يكتفون بما يحرِزون، ولا هم ييأسون أو يرتبكون إذا لم يحصلوا على ما يريدون... يعرفون أن التوفيق من الله، ويُرجعون إخفاقاتهم إلى أنفسهم... يقفون منتصبين في ثبات، ويأبون أن ينهاروا... فإن حصلتْ لهم رجَّة من حيث لا يشعرون، استعادوا الثبات من فورهم ثم مضوا لسبيلهم... لا يفرحون بما ربحوا من حظوظ الدنيا، فلا ينشدِهون بها ولا يغتمون أو يتكدرون لفرصة أضاعوها... يعرفون أن الحظوظ كلها من الحق سبحانه، فتصيبُهم رعشة ورجفة خشيةَ أن يتعرضوا للابتلاء من وجهة، ومن وجهة أخرى تَرى ظهورَهم منحنية خشوعًا ومهابة منه تعالى، لعلمهم أن كل الألطاف والإحسانات منه تعالى... فللوقفة السليمة السديدة لهؤلاء المصطفَين الأخيار، لن يتخلى الله عنهم، بل يؤيدهم بنصره في الدنيا ويشرفهم بوراثة الأرض، ويورثهم "جنة الفردوس" في الآخرة. واقرأ إن شئت شاهدًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء:١٠٥) والمعنى أن الأرض كلها ستصطبغ بصبغتهم... ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(المؤمنون:١٠-١١).

إن المقومات الداخلية لهذه الهامات السامقة وأطرَ رسالاتهم، تستدعي مقالة أخرى مسهبة ومستقلة تُشْبعها شرحًا وتفصيلاً، قد نعود إليها. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

د. عماد الدين رشيد*

استذكار عظماء تاريخنا والإشادة بذكرهم، هو حق من حقوقهم علينا، ودليل على وفائنا، وهو كذلك عودة إلى أرسخ جذورنا التاريخية والحضارية... وكل محاولة للنيل من مقامهم العالي والتهوين من قدْرهم، إنما هو عملية إقصائية لتاريخنا المشرق عن وجودنا الحاضر.

(الموازين)

* * *

البعد الدرامي في القصص القرآني

يتبوأ الوحي في ثقافة الأمة الإسلامية مكان الصدارة، حتى إنه ليمثل السمة المميزة لهذه الثقافة إلى درجة أنه يشكّل هويتها التي لا تنفك عنها، وهذا لا ريب عائد إلى كون الثقافة الإسلامية إلهية المصدر. وانطلاقًا من ذلك فقد توجّه علماء الإسلام إلى خدمة الوحي -كتابًا وسنة- ووضعوا مناهج دقيقة للتعامل معه تمكّنهم من إثباته وتفسيره وفهمه. فنشأ علم أصول الرواية لإثبات ما يحتاج إثباتًا من الوحي، كما نشأ علم أصول الفقه لفهم الوحي وتفسيره قرآنًا وسنة.

ولم ينحصر أثر علماء الإسلام في خدمة الوحي بولادة العلوم الشرعية، بل تعدى ذلك إلى ولادة العلوم اللغوية؛ فلا يخفى على الباحثين أن ولادة النحو العربي، كان من أجل ضبط النص القرآني والمحافظة عليه من آثار دخول العُجْمَة إلى المجتمع الإسلامي الأول. كما لا يخفى أن ولادة علم البلاغة، كان لبيان أسرار الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، والذي كان البداية لنظرية الإعجاز القرآني التي ما لبثت أن تطورت فتجاوزت علم البديع والبيان لتستوعب ضروبًا متميزة من الفن، كالتصوير الفني، والتصوير الدرامي في القرآن الكريم.

بين التقليدية والحداثة

عند الحديث عن الدراسة الفنية في القرآن الكريم، يتبادر إلى الذهن ما يحتويه النص القرآني من عناصر البلاغة والبيان، القائمة على النظم والسبك والتركيب، المتكئة على اللفظ في معظم مظاهرها، المستمدة من جزالته وقدرته على استيعاب تراكيب البلاغة.

وحقيقة الأمر أن هذه الصور البلاغية وإن كانت لا تخرج عن الجانب الفني للقرآن الكريم -فضلاً عن كونها ألصق بالأدب- فإنها ليست مشهده الفني كاملاً، فثمة ضرب من الفن امتلأت به الآيات القرآنية تحرضه الألفاظ والتراكيب وينطلق منها، مستفيدًا من دراسات الأقدمين، إلا أنه لا ينحصر في علاقاتها البديعية والبيانية، أو ينكفئ على الأنماط التقليدية من القوالب البلاغية، فلا تظهر قيمته إلا بمقدار ما يخضع للقوانين البلاغية الصارمة، بل يتجاوز هذا الفن مادته البنائية الأولى (اللفظ) ويتجه مباشرةً إلى ملكة الإحساس بجمال النص القرآني في نفس القارئ؛ هذا الجمال الكلي المنسق؛ يحاكيه بروعته، ويلامسه برقته موجهًا سهامه نحو خيال السامع، يختلس منه إعجابه، وينتزع انتباهه كليًّا نحو مراد النص حتى يتمكن من مشاعره فيذوب ساعتئذٍ مع معناه؛ فإذا ما رقّ النص ترقرقت دمعته، وإذا ما أنذر جمع بعضه إلى بعض وعقد حاجبيه، وإذا ما عرض عليه مشاهد العذاب هلع قلبه واحتبست أنفاسه، وإذا ما أخذ بيده إلى جنة من كل فاكهة بها زوجان تمتعت عينه وتاقت نفسه، حتى إذا ما جذبه إلى ساحة التوحيد حيث الأسماء الحسنى والصفات العليا، خشع فؤاده وانسكب عليه من الجلال ما يذهب عنه ضعف البشرية ورعونتها، ليعلن الخضوع والعبودية لله رب العالمين.

الأنماط الفنية التقليدية

إن أهم ما يميز الأنماط الفنية التقليدية في القرآن الكريم عن هذا النمط المحدث من الدراسة الفنية، هو أن الصورة الفنية التقليدية لا يمكن التفاعل معها إلا بعد تأمل نظمها، وبذل الجهد في مقايستها، وعرضها على القوانين البلاغية.

إن القرآن الكريم وإن كان يعتمد على التخييل أسلوبًا قصصيًّا، فإن ذلك من أجل الوصول إلى ما يسمى بالصدق الفني، وهو ما عبّر عنه صاحب التصوير الفني بجمال العرض وتنسيق الأداء وبراعة الإخراج، إلا أنه مع ذلك يحافظ على الصدق الواقعي، لأن القصة القرآنية قصة حقيقية واقعية، فلا يدخل القرآن في آياته غير الحق.

أما هذه الأنماط المحدثة، فإنها تطرق نفس السامع، وتأخذ بيده نحو المعنى بمجرد السماع من غير حاجة إلى تحصيل، فهي فن تذوّقي فطري يتم به تحقيق التدبر القرآني. وهذا -والله ﷻ أعلم- بعض ما يعبّر عنه قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

وبعبارة أخرى، إن الوصول إلى معاني النص وتذوق جمالها في الأنماط الفنية التقليدية، يتطلب من السامع أن يبحث في معجمه اللغوي، ويتأمل سياق اللفظ ليرتسم له معناه في إطاره الفني البديع.

أما في حالة التصوير الفني والدراما، فلا يحتاج السامع إلى أكثر من أن ينتقل باللفظ أو التركيب إلى مخيلته، فيلتقط من أفقها الواسع اللوحة أو المشهد الذي حمله النص، فيُنقَش في ذاكرته محفورًا حيث يصعب نسيانه.

مفهوم الدراما

الدراما واحدة من أهم صور الأدب التمثيلي الذي يعتمد على الإبداع الفردي، فهي فن صناعة الأحداث، وهي -بأوسع معانيها- تصوير الفعل الإنساني، لكن الفعل أو الحدث الدرامي "لا يشتمل فقط على الحركة أو السلوك الجسماني، وإنما يصور أيضًا الأنشطة الذهنية والنفسية التي تدفع الإنسان إلى السلوك بطريقة معينة، ولذلك فعبارة "الفعل الإنساني" تشتمل على المشاعر والأفكار والأفعال جميعًا".

ومن هذه الجهة تشكل جانبًا لصيقًا بالإنسان، لأن حياة الإنسان حركة دائمة من الأحداث المتعاقبة التي يقوم بها البشر أو تحيط بهم. وتأتي الدراما بوصفها نوعًا راقيًا من الفن، لتحاكي حياة الإنسان بأسلوبها المتميز وخصائصها الدقيقة، وبقدر قربها من حياته تكون أكثر نجاحًا وتشويقًا. فالدراما فن تمثيلي يعنى بتصوير الفعل الإنساني وما يرتبط به.

بين الدراما والقصة

تتميز الدراما بعدة أمور تجعل منها نوعًا فنيًّا له خصوصيته،

سواء في اللغة أو الزمان، مما يجعلها تباين القصة على الرغم من اشتراكهما في بعض العناصر البنائية. وكون الدراما تقوم على نوع خاص من القصة، وهي القصة التمثيلية التي تتناول الفعل الإنساني بأوسع معانيه.

فمن حيث اللغة تتسم لغة الدراما، بأنها حوارية بعيدة عن السرد الحر والعرض القصصي الذي يفصل السامع عن أحداث القصة، ويجعل منه ضيفًا يستطيع أن ينصرف متى أراد. أما متلقي الدراما فلا يمكنه الانصراف متى شاء، لأن الحوار الدرامي يجذب انتباهه ويشده للمتابعة، فلا يتمكن من الانصراف قبل نهاية الأحداث الدرامية. فالحوار وما يقوم مقامه من لغة الجسد والإيحاء، يشكل أساس التشويق في الدراما.

وتتميز الدراما بأنها سلوكية تقبل التمثيل، وواضح أن كونها حوارية هو الذي هيَّأها لتكون قابلة للتمثيل، ويزيدها تأثيرًا في نفس السامع والمشاهد كون حواراتها واقعية.

أما القصة فلا يُشترط أن تعتمد على الحوار في لغتها ولا أن تكون قابلة للتمثيل.

وأما من حيث الزمن، فإن تركيب الدراما يوحي بأن المشاهد يشهد شيئًا في الحاضر، كأنَّ أحداث الدراما تقع الآن أمام ناظريه، بينما لا تمنحه القصة أو الرواية هذا الإحساس، فهو يقرأ شيئًا قد حصل في الماضي. ولو عُولجت القصة أو الرواية دراميًّا لمنحته هذا الشعور، وهذا لا ريب يشير إلى أثر المعالجة الدرامية في زمن الرواية والقصة، والذي يقوم بذلك هو الحبكة وبقية العناصر الدرامية مع عدم إغفالنا دور اللغة الحوارية التمثيلية التي تتسم بها الدراما.

عناصر الدراما

تكشف عناصر الدراما عن الهوية التي تصبغها بلونها الخاص، سواء في العرض أو الحبكة أو العناصر البنائية الأخرى، وحتى نتذوق الخصوصية الفنية للدراما يَحسن أن نذكر عناصرها وجوانبها البنائية.

أما العرض الدرامي فيبدأ بالدخول إلى مكان الحكاية، وبمقابلة أشخاص لم يكن السامع ليسمع بهم من قبل، ويُشترط في العرض الدرامي أن يُحدث في المخاطَب حيرة ودهشة تشدّه إلى متابعة الأحداث، فبمجرد معرفته الحقائق الأساسية عن المكان والأشخاص حَمَلةِ الحكاية، ينبغي -كي يكون العرض ناجحًا- أن تنشأ لديه حالة من حب الاستطلاع والتشوق لمعرفة المزيد من الأحداث. هذا ويجب أن يتضمن العرض تقديم الخلفية الضرورية من المعلومات اللازمة لتطور أحداث الدراما.

أما الحبكة الدرامية أو ما يسمى بالبناء الدرامي أو العقدة الدرامية، فهي من خصائص الدراما التي تكسبها معناها، وهي تصرف أدبي فني في القصة يُرَاد منه تحويلها إلى الدراما. فالقصة هي مضمون العمل الدرامي، والحبكة صناعة الأحداث التي تحمل هذه القصة. الحبكة روح الدراما التي تميزها عن القصة.

ولكن لا يخفى على الباحثين في القصة القرآنية، أن القرآن الكريم وإن كان يعتمد على التخييل أسلوبًا قصصيًّا -بمعنى تحفيز خيال المتلقي، وليس إعمال خيال صاحب النص كبقية نصوص البشر، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- فإنه يعتمد عليه من أجل الوصول إلى ما يسمى بالصدق الفني، وهو ما عبّر عنه صاحب "التصوير الفني" بجمال العرض، وتنسيق الأداء، وبراعة الإخراج، إلا أنه مع ذلك يحافظ على الصدق الواقعي، لأن القصة القرآنية قصة حقيقية واقعية، فلا يدخل القرآن في آياته غير الحق. ومن هنا تحديدًا، ينبغي أن نُدرك أن دراما النص القرآني لا تعتمد على توسيع المضمون الدرامي ولا الحبكة الدرامية، لأن هذه الدراما تعتمد على القصة القرآنية وهي جزء لا يتجزأ من نسيج الوحي، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(آل عمران:٦٢).

لا ينفصل الصدق الفني عن الصدق الواقعي في القرآن الكريم، ولا يبتعد عنه، خلافًا لما هو مرتبط في أذهان الكثيرين من أن الصدق الفني مقترن بالاختلاق والتلفيق، حتى أطلق شعار "أعذب الشعر أكذبه".

أما عن العناصر البنائية في الدراما فأولها التوتر؛ إذ هو أهم سمات العلاقة بين أجزاء هذا العمل الفني، وهو يمثل حالة الجذب وأساس التشويق في العمل، ويتفاوت قوة وضعفًا، وتعقيدًا وبساطة، حتى يصل إلى قمة التوتر فيحدث ما يقال له "الذروة الدرامية".

ومن صور التوتر الدرامي سوء التفاهم، وهو ما يسمى بـ"المفارقة الدرامية". ومن الوسائل البسيطة للتوتر الدرامي "المفاجأة". وواضح أن كل واحد من المفارقة الدرامية وعنصر المفاجأة يكتنز من التشويق قدرًا كبيرًا، وهذا الأخير هو العصب المؤثر في إيجاد التوتر الدرامي.

ومن العناصر المهمة في بناء الدراما، أن تكون الأحداث

متماسكة مبنية وفق تآزر صحيح، لتشكل ما يُعرف بالتماسك الدرامي، حيث تمر الأحداث منطقية ولو لم تعرض حسب تسلسلها الزمني. ومن أهم مستلزمات التماسك الدرامي، ألا تقع الأحداث منفصلة عن ممهدات تسبقها وهو ما يُعرف بالتمهيد الدرامي، ولا يخفى ارتباط التمهيد بالعرض ارتباطًا وثيقًا.

ومما سبق كله، يمكن القول بأن الدراما نوع من القصة التي تتناول الفعل الإنساني، وتتميز عنها ببنائها الخاص الذي يمنحها ما يأتي:

- خصوصية لغتها وزمنها.
- وأنها تقبل التمثيل بسبب حبكتها،

بينما لا تفتقر القصة إلى مثل هذه المعالجة؛ إذ تعتمد على السرد كأسلوب يوصل السامع أو القارئ إلى أحداث القصة، أما الدراما فتنتقل بالمشاهِد إلى قلب الحدث، فتخرج بذلك من حيز الأدب القصصي إلى حيز الفن.

وهذا الأمر تحديدًا، يجعل من دراسة الدراما في القرآن نوعًا مختلفًا عن دراسة القصة القرآنية، وليس لمجرد كون الدراما تعتمد على حكاية الفعل الإنساني نلحقها بدراسة القصة القرآنية، أو نجري عليها أحكام القصص القرآني كاملة، ومما يؤكد خطأ هذا التصور أن الدراما قد شقت لنفسها طريقًا مستقلة عن القصة، وأصبحت فنًّا له قواعده وأعلامه ونقّاده ومنهجه.

الدراما والتصوير الفني

إن حقيقة وجود الدراما في القرآن الكريم، تنبع من تطبيق أحكام الدراما على القصة القرآنية التي قدمها البيان الإلهي بأسلوب التصوير الفني. ومن ثم أريد أن أبيّن أن سيد قطب -رحمه الله- في أثناء عرضه لنظريته في التصوير الفني، قد ظهر عنده هذا المفهوم ظهورًا أوليًّا من غير أن يُفرده بتسمية خاصة.

قال -رحمه الله- عن الأسلوب القرآني: "فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي رسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة، فإذا

يعبر الأسلوب القرآني بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي رسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة.

المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة مجسمة مرئية".

ولو رجعنا إلى تعريف الدراما السابق بأنها "فن تمثيلي يعنى بتصوير الفعل الإنساني وما يرتبط به"، وأن عبارة "الفعل الإنساني" "تشتمل على المشاعر والأفكار والأفعال جميعًا"، فسنجد أن فن الدراما يقوم على أسلوب التصوير وهو التعبير بالصورة المتخيلة.

وأما مجال الدراما -وهو الفعل الإنساني- فيدخل في مجال التصوير، لأن مجال هذا الأخير يتسع ليشمل المعاني الذهنية والأفكار المجردة زيادة على الفعل الإنساني... ولكن لابد من البيان بأنه يُشترط في الدراما أن تعرض الفعل الإنساني في سياق القصة على نحو قابل للتمثيل.

أما عن أثر الدراما فإننا نجد أنه أضيق من التصوير، إذ يتناول التصويرُ اللوحةَ والمشهدَ والحركةَ الحية المتشخصة. وهذه الأمور الثلاثة متدرجة من حيث القيمة الفنية؛ إذ يراد باللوحة، ما يشكّله التعبير الفني في نفس المتلقي من معنى كأنه صورة بديعة تشده بألوانها، إلا أنها لا تزال صورة.

بينما يراد بالمشهد الصورة المركبة، أو جملة الصور التي تشكّل معاني أوسع من سابقتها، إلا أنها ثابتة لا تتحرك.

أما الحركة فهي المشاهد والصور الفنية المتعاقبة التي تتفاعل مع الزمن وتتغير مع حركته. فالأولى كالتصوير الفوتوغرافي لمفردة واحدة، والثانية كالتصوير الفوتوغرافي لأكثر من مفردة، وأما الثالثة فهي كالتصوير السينمائي أو التلفزيوني.

ولو رجعنا إلى الدراما، فسنجد أنها لا تشمل سوى الأثر الأخير وهو الحركة الحية المتشخصة، وبعبارة أدق؛ الإيقاع الحركي المتشخص، وهذا الأثر صورة مهمة من صور التعبير الفني، به تدخل الدراما في مجال الفن أكثر من انتمائها إلى مجال الأدب.

من هذه المقارنة، يمكن أن نستخلص أن الدراما في النص القرآني إنتاج فني مستقل، وهو مباين للتصوير الفني

في القرآن الكريم وإن كان يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا.

الكتابة في دراما النص القرآني

وبذلك نعلم أن سيد قطب -رحمه الله- قد حام في حديثه عن التصوير الفني في القرآن الكريم حول دراما النص القرآني، على الرغم من كونه لم يسمِّها باسمها أو يفردها بأحكام خاصة. وقد ظهر في كتابه دندنة حول ما ندندن حوله في هذا البحث تحت ما سماه "التصوير في القصة"، فقد عرض فيه ثلاثة ألوان للتصوير في القصة القرآنية.

ومما سبق كله، نستنتج أن التصوير الفني هو عمود العمل الدرامي وأسلوبه الرئيس الذي يتجلى في تحريك الفعل الإنساني المكتوب في سياق قصصي، وتحويله من موت السطور إلى المواقف الحية المفعمة بالحركة والنشاط؛ حيث تتشخص المعاني الذهنية، وتتجسد الحالات النفسية عبر استثارة خيال السامعين وتحويلهم من مستمعين إلى نظارة، باستعمال الحوار غالبًا.

ولو أحببنا أن نعبّر بعبارة أخرى فإننا نقول: إن التصوير أسلوب فني، والدراما نتاج فني يعتمد على أسلوب التصوير، ولا يخفى الفرق ما بين المنتج وأسلوبه. ■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.

المصادر:

(١) علوم القرآن الكريم، للدكتور نور الدين عتر، دمشق، مطبعة الصباح، ط:٦، ١٤١٦هـ.

(٢) التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦م.

(٣) الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، المنسوب لابن القيم، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧م.

(٤) مع الدراما، أثر تطور الاتصال على تطور الأشكال القصصية، ليوسف الشاروني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

(٥) فن السيرة في القرآن الكريم، لعزة لؤي حلبي، رسالة ماجستير نُوقشت في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، ٢٠٠٤م.

(٦) نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، للدكتور صلاح الخالدي، جدة، دار المنارة، ط:٢، ١٩٨٩م.



الواصلون

يا طريقنا الطويل!
متعبون، متعبون..
ولكننا ماضون،
وبالإرادة مسلّحون..
وبعون الله واصلون...
أمَّا الناكصون، الواهنون؛
فوَعْثَاءَ الطريق لا يطيقون،
ويتعلّلُون، والأعذارَ ينتحلون:
"القذَى يملأ عيوننا،
وعاصفةُ الثلج تفري عظامنا،
لا نطيق السيرَ، لا نطيق..
اتركونا، اتركونا، لا تُتعبونا!"

* * *

عبد الوهاب بوخلخال*



فلسفة الإنسان في "نوايا الحقيقة"(١)

لا نقصد بالفلسفة في هذا المقام، ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يحيل في أكثر الأحيان إلى مجال معرفي نخبوي، أهم ما يميزه -في أعين البعيدين عنه- صعوبة الأسلوب وغموض المصطلحات، والبحث في قضايا تبدو بسيطة وواضحة. فمن ليس مختصًّا بالفلسفة هكذا يرى الفلسفة.

وإنما "الفلسفة" التي سنتحدث عنها هنا، أقرب إلى مفهوم الحكمة، والتي تحيل إلى النظرة العميقة أو الكلية للمسائل، دون أن تتورط بالضرورة في آفة الصعوبة والغموض... نعني بها النظرة للحياة.

فالفلسفة أو الحكمة على هذا، لا تكون مجالاً معرفيًّا تخصصيًّا يهتم به النخبة وتهجره العامة، وإنما سيكون نظرة تحدد مسلك الإنسان -أيّ إنسان- ولو كان أميًّا في الحياة... هي تلك النظرة التي تصاغ بلغة بسيطة، ولكنها عميقة ودالة على المراد بأوضح ما تكون الدلالة.

ومن هنا، عندما نقول في هذا المقام "فلسفة النورسي"، لا نقصد جانبه الفلسفي التخصصي الذي نلامسه في بعض كتاباته وردوده على الفلسفة الغربية، وإنما نقصد تلك النظرات التأملية الكاشفة عن نظرته للحياة... وفي ظني أن هذا النمط هو الفلسفة الحقة، لأنها تعبر عن الإبداع وتتجاوز مجرد النقل والاتباع.

وهذا النمط من الكتابة، نجده عند النورسي في رسالة صغيرة هي رسالة "نوايا الحقيقة"، وهي تكشف عن نفسها من عنوانها، فهي لن تتكلم -بحسب تحليل العنوان- عن

"الحقيقة"، وإنما عن "نوايا" (جمع نواة) تلك الحقيقة، لأن الحديث عن "الحقيقة" يقتضي الدخول في مجال الفلسفة بالمعنى التخصصي، وهو ما يقتضي بسطًا في التحليل وإكثارًا للأدلة، وإسهابًا في إيراد الحجج وتزييف حجج الخصوم وهو ما تكفلت به مجموعات كليات "رسائل النور" (الكلمات، الشعاعات، اللمعات، الملاحق ...إلخ). أما هنا في هذه الرسالة الصغيرة، فهو يريد أن يحدثنا عن "نواة" الحقيقة، والحديث عنها تكفي فيه جمل مختصرة معبرة تصل إلى المعنى من أقصر طريق... هو هنا ليس في مقام التحليل والتدليل، وإنما في مقام التركيز، فجاءت "الرسالة" عبارة عن خلاصات مركزة، تستفز القارئ، تطلب منه أن يتعامل معها وكأنها حقائق مسلمة، بل نوايا أو جواهر لتلك الحقائق، فجاءت -من حيث الصياغة- أشبه ما تكون بالحكم التي يتداولها الناس وهم على يقين من صوابها.

هكذا نجد النورسي في "نوايا الحقيقة" يعطينا زبدة تأملاته، في أسلوب بسيط عميق، وجمل قصيرة موحية قد تغريك بساطتها، فتمد يدك إليها محاولاً تلمسها فإذا بك تقع على خلاصة مركزة قد تدفعك أنت أيضًا إلى التأمل ومزيد القراءة، حتى تستطيع أن تتذوق ما يريده منك صاحب الحكمة.

تأمل معه -مثلاً- هذه الحكمة: "ينبغي النظر إلى الماضي والمصائب نظرة القدر، والنظر إلى المستقبل والمساوئ من نقطة التكليف، فالجبر والاعتزال يتصالحان هنا". انظر كيف يضع الإصبع على "نواة" الحقيقة التي أضاعها الجدل النظري حول مسألة القدر بين المدارس الإسلامية، فضاعت الوظيفة العملية للقدر، وتخاصمت الاتجاهات بدل أن تتآلف... هي حكمة بسيطة، لكن قارئها إن تجاوز "النواة"، عليه أن يُلم بذلك الجدل الذي امتد قرونًا -ولا يزال- في دنيا المتكلمين والفلاسفة والصوفية، وأن يدرك تجليات عقيدة القدر في المعتقدات الشعبية في واقع المجتمعات الإسلامية.

ونحن في هذا المقام لن نحلل كل تأملات النورسي، وإنما سنركز على ما يمكن أن نستشف منه نظرة الرجل إلى "الإنسان"، على اعتبار أنها هي الكاشفة عن حقيقة فلسفة الإنسان في الحياة.

إذا لم يستضئ نور الفكر بضياء القلب ولم يمتزجا، فهو ظلام يفجر الظلم، فكما إذا لم تمتزج ظلمة نهار العين الأبيض بضوء الليلة السوداء، لم تكن بصرًا، كذلك إذا لم توجد في الفكرة البيضاء سويداء القلب، فلا تكون بصيرة.

نوايا الحقائق حول الإنسان

الحقائق عن الإنسان، تمر غالبًا بالحديث عن قيمة هذا الإنسان ومكوناته وعلاقته بالوجود من حوله، وعن كيفية التعامل مع مكوناته وأحاسيسه من فرح وحزن، أو سعادة وشقاء ويأس وأمل، أو سكون وتطلع... وتلك كانت النقاط التي لامسها النورسي وهو يحدثنا عن نوايا الحقائق حول الذات الإنسانية.

فحقيقة ماهية الإنسان أنه مخلوق رباني، يوازي في قيمته وتعقده قيمة هذا الكون الرحب وقيمته، يقول النورسي: "إن الإنسان كسورة يس كتبت فيها سورة يس". لست أدري إن كان لـ"يس" دلالة هنا أم لا، ولكن الأستاذ يضعنا أمام صورة تُشبع البصر وتستفز العقل ليفكر في ماهية هذا الإنسان... صورة فنية تحيل إلى التكامل والتعقيد اللذين يسمان تركيب الإنسان. فأنت ترى نفسك أو ترى غيرك، صورة ظاهرة مثل كلمة "يس"، بيائها وسينها هكذا مجردين... ولكن إن اقتربت رأيت تلك الياء والسين تعجان بالتفاصيل التي هي مضمون سورة "يس"!.. تفاصيل تتكامل لتعطينا معنى متناسقًا، كتكامل آيات، بل كلمات، بل أحرف سورة "يس" لتعطينا صورة متكاملة المضمون.

تلك التفاصيل، تجعل الإنسان مخلوقًا يوازي الكون كما قلنا، وهذه حقيقة قرآنية تجدها ماثلة أمامك في الآيات التي تضع الإنسان في كفة والكون الرحب في كفة مقابلة، سواء في الدلالة على الخالق أم في الامتنان على المخلوق، كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣)، وقوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢٠-٢١).

الإنسان والعالم

ثم رشحت هذه الحقيقة لدى الصوفية في مقولتهم الشهيرة: "الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير"، وهي ذات النظرة

التي تبناها النورسي في تأملاته، والتي بموجبها يرى أن الإنسان والكون كل منهما خاضع لشريعة تخصه، لكنها في النهاية "شريعة"، لأن مصدرها واحد هو خالق الإنسان والكون، يقول: "الشريعة اثنتان إحداهما: الشريعة التي تنظم أفعال وأحوال الإنسان الذي هو عالم أصغر، والتي تأتي من صفة الكلام وهي الشريعة المعروفة لنا، الثانية: الشريعة الفطرية التي تنظم حركات وسكنات العالم الذي هو إنسان أكبر وهذه من صفة الإرادة، فهي تسمى أحيانًا بالطبيعة خطأً، والملائكة أمة عظيمة، وهي حملة وممثلة للأوامر التكوينية الآتية من صفة الإرادة والتي تسمى بالشريعة الفطرية".

هل يعني هذا، أن الإنسان منفصل تمامًا عن العالم، على اعتبار أن الاختلاف بين الشريعة التي تحكمه وبين تلك التي تحكم العالم؟ حتى لا يسارع القارئ إلى تبني هذا الانفصال بين الإنسان والكون، وقد يؤدي به ذلك في المطاف الأخير -كما هو شأن الفلسفة الغربية المادية- على التعامل مع الكون من منطلق الصراع والصدام... يذكرنا النورسي في تأملاته وكأنه يفصل أو يستدرك فيقول: "إن الروح قانون ذو وجود خارجي، وناموس ذو شعور، وهو آت من عالم الأمر وصفة الإرادة كالقوانين الفطرية الثابتة، وقد كسته القدرة الوجود الحسي، وجعلته سيالة لطيفة صدفة لذلك الجوهر. إن الروح الموجود أخ للقانون المعقول، كلاهما دائمي وكلاهما آت من عالم الأمر. ولو ألبست القدرة الأزلية وجودًا خارجيًّا لقوانين الأنواع لأصبحت روحًا، ولو طرح الشعور عن رأسه لأصبح قانونًا لا يموت أيضًا". فالروح التي هي جوهر الإنسان، من المصدر ذاته الذي يعطينا القوانين/السنن المحركة لهذا الكون... هي كقوانين الوجود، كله من "الله": ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(الأعراف:٥٤).

من هنا كان الإنسان -كما الكون- في ظل العناية الربانية ماديًّا ومعنويًّا، بحسن الخلق ودقة التصوير وجمال التركيب في الأول، وإنزال الشرائع وبعثة الأنبياء ونصب دلائل الهداية في الثاني. فهل يعقل -يلاحظ النورسي- أن يولي الله تعالى العناية بالمادة ويهمل الروح؟! أم هل يتصور أن يهتم سبحانه بالمخلوقات الحقيرة -في نظر الإنسان- ويسلم مصير الإنسان إلى الحيرة والضياع؟! يقول النورسي: "إن القدرة الأزلية التي لا تترك النملة بدون أمير والنحل بدون يعسوب، لا تترك البشر بدون نبي". فالنبوة في هذا المقام، من مقتضيات القدرة الربانية والحكمة الأزلية، لأنها تجلي هاتين الصفتين في الحياة قبل أن تكون -أي النبوة- حاجة تقتضيها طبيعة الإنسان وتكوينه.

هذه الطبيعة الإنسانية ذات التكوين المزدوج من حيث أن الإنسان مادة (قبضة من تراب) وروح (نفخة من روح)، جعلت من هذا الإنسان صاحب استعداد مزدوج أيضًا (فجور وتقوى) أو (شر وخير)، وصاحب مصير مزدوج في النهاية (هدى أو ضلال)، (جنة أو نار)... هذه حقائق قرآنية يذكرنا بها الله تعالى في أكثر من موضع في القرآن؛ فعن الطبيعة المزدوجة نجد: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢)، وعن الاستعداد المزدوج نقرأ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(الشمس:٧-٨)، وعن المصير المزدوج نسجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠).

الفلسفة القرآنية والإنسان

هذا جوهر الفلسفة القرآنية في نظرتها إلى الإنسان وهو ما نجده في تأملات النورسي، وما النورسي في حقيقته إلا تلميذ مخلص لهذا القرآن. فهو ينظر إلى الطبيعة المزدوجة للإنسان، ويرتب عليها نتائج تتعلق بمجال مهم في حياته وهو تحصيل المعرفة. فالذي يفصل بين جانبي الإنسان، سيحصّل -إن حصل- معرفة مشوهة أو ناقصة، سيكون كمن ينظر بعين واحدة، يرى أحد جانبي الإنسان ويهمل الجانب الآخر وهو المأزق الذي وقعت فيه الفلسفة الغربية، وانعكست ظلاله القاتمة على المسلمين حين دخلوا مرحلة التقليد لكل ما هو آت من الغرب، فأثيرت نقاشات -ولا زالت لها ذيول إلى يوم الناس هذا- حول العلاقة بين "العقل" و"النقل" أو بين "الفكر" و"القلب". والمسألة في جوهرها -كما ينبه النورسي- تعود إلى هذا الفصل المتعسف بين جانبي الإنسان، وهي من سوؤات المذاهب المادية التي أثمرت في دنيا البشر أسوء الثمرات (الظلم)... وهل هناك وضع أكثر بؤسًا من أن يفضي العلم -وهو في نفسه فضيلة- إلى الظلم وهو أسوء رذيلة؟! ذلكم هو المأزق الأخلاقي لحضارة استطاعت أن تطلق العقل يجول في آفاق الكون، ولكنها انطلاقة على غير هدى؛ فكان كلما تقدم خطوة ابتعد عن جوهر إنسانيته خطوة، وكلما

أضاء جانبًا من المادة أظلم جانبًا بين جنبات الإنسان، فاتسعت الهوة بين "العلم" و"الأخلاق"، أو -إن شئنا- الدقة بين المعرفة والالتزام السلوكي الإنساني السوي. يلخص لنا النورسي هذا المأزق فيقول: "إذا لم يستضئ نور الفكر بضياء القلب ولم يمتزجا، فهو ظلام يفجر الظلم، فكما إذا لم تمتزج ظلمة نهار العين الأبيض بضوء الليلة السوداء، لم تكن بصرًا، كذلك إذا لم توجد في الفكرة البيضاء سويداء القلب، فلا تكون بصيرة".

الفلسفة المادية أو النظرة المادية، على الرغم من أنها دوران حول المادة، لكنها في حقيقتها مرض، بل طاعون من طبيعة معنوية، لأن آثاره المدمرة تضرب أول ما تضرب الجانب المعنوي في حياة الإنسان، فهي تعطي معرفة لا تتجاوز الظواهر، ولكنها تفقر الجوهر وتلغيه.

ظلمة القلب

وكم يشقى الإنسان حين يتبنى فلسفة تظلم فيه القلب لحساب العقل، أو تكبت فيه العقل لحساب القلب. عندها يختل الميزان ويتفجر صراع بين جنبات الإنسان، سرعان ما ينتقل إلى واقعه ويظهر على أخلاقه، ولما كان لهذا الخلل كل هذه الخطورة، وجدنا النورسي في تأملاته، يؤكد على جوهر هذه المسألة، فيعالج مرة خطورة أن تميل الكفة إلى جانب "المادة"، ويعالج أخرى أن تميل الكفة إلى جانب "الروح/القلب".

يقول عن الميل إلى المادية وهي من نتائج الفلسفة الغربية المعاصرة: "إن المادية طاعون معنوي، لذا تسبب في سريان حمى مدهشة بين البشرية وعرضتها للغضب الإلهي، وعلى قدر توسع قابلية التلقين والنقد والتقليد في الإنسان، يتوسع ذلك الطاعون أيضًا". فالفلسفة المادية أو النظرة المادية، على الرغم من أنها دوران حول المادة -كما يدعي أصحابها- لكنها في حقيقتها -كما يقول النورسي- مرض، بل طاعون من طبيعة معنوية، لأن آثاره المدمرة -كما هو مشاهد في عالمنا اليوم- تضرب أول ما تضرب الجانب المعنوي (الإنساني والأخلاقي) في حياة الإنسان، فهي تعطي معرفة لا تتجاوز الظواهر، ولكنها تفقر الجوهر وتلغيه... وهل يمكن أن يحيى الإنسان حياة سوية إن دارت حياته حول المادة والمادة فقط؟ إنه إن فعل -وقد فعل مع الأسف- سيقع في الاغتراب عن نفسه وعن الكون؛ أعني الاستيحاش والشعور بالأجنبية عن ذاته وعن الكون من حوله. فالمعرفة المادية معرفة قاصرة تحلل وتدقق وتفكك وتفسر كل جزئية من جزئيات الكون، ولكنها لا تخطو بالإنسان خطوة خارج دائرة المادة والظاهر، فضلاً عن أن تشبع تطلعاته وأشواقه إلى ما يتجاوز المادة إلى الروح، بل ما يتجاوز الدنيا إلى الآخرة... ولعل هذا بعض ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧).

وهو يعالج الخلل الثاني -وإن من طرف خفي- أعني الميل إلى إهمال الأسباب المادية، وتعليق كل ذلك على عجز الإنسان أو إحالة الأمر إلى الغيب... ويبدو أن هذا من أمراض عالمنا الإسلامي، حين تعطلت في المسلمين ملكة الإبداع، فاختلطت أمامهم مجالات المادة بمجالات الغيب، فوجدنا بعضهم يبرر كسله وانصرافه عن البحث في الآفاق والأنفس، بإحالة كل ذلك على القدرة الإلهية، والاكتفاء بملاحظة الآخرين وهم يهيمون في أودية المادية، فإذا ما أوصلهم اجتهادهم إلى اكتشاف سنة من سنن الله تعالى في الكون، سارع أصحابنا إلى التنويه -بفخر لا يستحقونه- أن هذا مشار إليه في كتاب الله. هذا عجزٌ يوازي في قبحه انغماس صاحب المادة في ماديته، لأن في كلا الموقفين انصراف عن الحقيقة المتكاملة التي بثها الله تعالى في كونه مادة وروحًا، يقول النورسي عن هذا الخلل: "ينبغي عدم اللجوء إلى العجز فيما يمكن حله، وعدم الالتجاء إلى الجزع فيما لا يمكن علاجه".

وبعد أن يحدد النورسي ماهية الإنسان، وينبه إلى ضرورة التعامل معها بالتوازن الذي يضمن التكامل بين المادة والروح، ينتقل بنا في وقفات أخرى تلامس جوانب من هذه الماهية الإنسانية.

فينبهنا إلى ارتباط كرامة الإنسان بسعيه الفطري إلى المعرفة، وهذه من اللفتات التي قل من أشار إليها في مفهوم التكريم الرباني للإنسان، حيث ينصرف الحديث -عادة- إلى حسن التقويم وجمال التركيب والاستعداد للمعرفة. أما النورسي فهو لا يتحدث عن الاستعداد للمعرفة فقط، وإنما

عـن السـعي والبحث عن الحق، وفي هـذا البحث قد يخطئ الإنسان طريقه، وقد يتبنى الباطل على أنه حق والخطأ على أنه صواب، وقد يتعصب لهذا ويقاتل دون ذلك، يقول: "إن الإنسان لكونـه مكرّمًا فطرة، يبحث عن الحـق دومًا، وأثناء بحثه يعثر على الباطل أحيانًا فيخفيه في صدره، وهو ينقب عن الحقيقة يقع على الضلال بدون اختيار فيظنه حقًّا فيلبسـه على رأسه".

الحق والباطل

وهـو هنـا يضعنا أمـام حقيقة تتعلق بـدور الحـق والباطل أو الصـواب والخطـأ فـي الحياة، فـلا يكفي فكرة مـا، أن تكون حقًّـا لتكـون مؤثـرة فـي الواقع، ولا يـؤدي كونهـا باطلاً إلى انتفاء أثرها فيه... فالحق والباطل هكذا مجردان لا تأثير لهما في دنيا الإنسان ما لم يتبنّ هذا الإنسـان ذلك الحق أو ذلك الباطل، ويعطيه سـر تأثيره في الواقع وهـو "الفاعلية". فالذي يسـعى للبحـث عـن "الحق" -كما فـي الحكمة السـابقة- إذا وجـد الباطـل وأخفـاه في صـدره، أو وجد الضـلال ووضعه على رأسـه، سـيؤثر بهما في الواقع ما دام لديه ذلك السـعي وتلك الحركة... أما صاحب الحق الذي لا يتحرك بحقه، فلن يكـون له في دنيا الناس أثـر، والواقع الذي يحياه العالم اليوم خير دليل على هذه المسألة. فنحن كمسلمين، نلوم الحضارة الغربيـة علـى ماديتهـا المفرطة ونبالـغ أحيانًا فـي ذم باطلها، ولكننـا نغفـل عن سـر حضور ذلـك الباطل بقوة فـي الواقع، وسـر غيـاب الحق الذي نعتقـد أننا ورثته. إن ذلك السـر هو "الفعالية"، إذ لا تلازم بين صوابية الفكرة والمنهج وأحقيتهما، وبين تأثيرهما التلقائي في الواقع، وهذا ما يشير إليه النورسي بقولـه: "إذا لـم يكن فـي العلم إذعان القلـب فهو جهل، لأن الالتـزام شـيء والاعتقاد شـيء آخـر". فإذعـان القلب هو ما يكسب العلم -زيادة على صفة الحق- فعالية دافعة إلى العمل، وهـو مـا يمكن أن ينقل الإنسـان من دائرة الاقتنـاع إلى دائرة الالتزام... فما ينقص المسلمين اليوم، ليس إقناعًا بحقائق هم مؤمنـون بها، وإنما الالتزام الواقعي بمقتضيات تلك الحقائق. بعبـارة أخـرى، تفعيل الحـق واقعًا بعـد أن آمنوا بـه اعتقادًا.

ومـن تأمـلات النورسـي أيضًـا، كلمات تلامـس جوانب نفسية مختلفة في الإنسان منها:

- دور الأمل في حياة الإنسان: "إن الأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم".
- السـبيل إلى الاسـتمتاع بالحيـاة: "إن الذي يـرى جيدًا، يفكر جيدًا، والذي يفكر جيدًا، يتذوق لذة الحياة".
- آثار الشـهرة على الإنسـان: "إن الشـهرة تملك الإنسان ما ليس له".
- تأثـر الإنسـان بمحيطه والرسـائل التي يتلقاهـا منه: "إذا قيل للمجنون "أنت حسـن أنت حسـن"، ليس من المسـتبعد أن يتحسـن، وإذا قيل للعاقل "أنت رديء أنت رديء"، فليس نادرًا أن يردأ".
- عوامـل المؤثـرات الخارجيـة: "إن الخـوف والضعـف يشجعان التأثيرات الخارجية".
- من أسرار شقاء الإنسان: "إن أشد الناس شقاء واضطرابًا هو الرجل العاطل عن العمل، ذلك لأن العطل هو ابن أخ العدم وشـقيق الموت، أما السعي فهو حياة للوجود ويقظة للحياة".
- علاقة الإنسـان بمجتمعه: "لكل إنسـان نافذة يطل منها على المجتمع ليرى ويُرى تسـمى مرتبة، فإذا كانت قامة تلك النافـذة أكثـر ارتفاعًا من قامة قيمة الشـخص، تطاول بالتكبر، وأمـا إن كانـت أخفض مـن قامته، تواضـع وتقوس وتخفض حتى يرى من تلك السوية أو يُرى".
- من خبايا النفس: "إن التماثل سـبب للتضاد، والتناسـب أسـاس للتسـاند، وصغر النفس منبع الكبـر، والضعف معدن الغرور، والعجز منشأ الخلاف، والتعفف أستاذ العلم".
- تحليـل نفسـية الضعيـف وسـر لجوئـه للتخريـب: "إن وجـود الشـيء يتوقـف على وجـود جميع أجزائـه، أما عدمه فلعدم وجود جزء من أجزائه، لذا نجد الرجل الضعيف يميل إلـى التخريب لإثبـات قدرته، فيرتكب الأعمال السـلبية بدل الأفعال الإيجابية".

ذلكم هو الإنسـان في فلسـفة النورسـي وتأملاته، وتلكم بعض من نوايا الحقائق حول هذا المخلوق المكرم.

ولنختـم رحلتنا مع النورسـي بـ"نواة"، ربمـا تلخص كثيرًا ممـا أطلنا فيـه الحديث، لأنها توقف الإنسـان علـى حقيقته، وتنبهـه إلـى ما قد يغفل عنه في أحيان كثيرة، يقول رحمه الله: "إن معيار العظمة في الإنسـان هو الصغـر (أي التواضع)، أما مقياس الصغر فهو التعاظم (أي التكبر)". ■

(*) كاتب وباحث جزائري.

الهوامش:

(1) وهـو فصل فـي "المكتوبـات"، لبديع الزمان سـيعد النورسـي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

أ.د. الشاهد البوشيخي*

كتبٌ تحرّك الفكر وتقوّي الروح هي ما ينبغي أن نضعها في أيدي معلّمي صغارنا ومربّيهم.
ومثلُ هذه الكتب جديرة بأن تنشئ لنا أجيالاً ذوي إرادات قوية وأفكار عالية.

* * *

(الموازين)

إنسانية الوظيفة النسائية ومركزيتها

ما المقصود بإنسانية الوظيفة النسائية؟ وما مركزيتها؟ إن أهم ما في هذا الكون هو هذا الإنسان/الخليفة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)؛ له سُويت الأرض وله رُتبت السماء: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾(البقرة:٢٩)، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(لقمان:٢٠).. الكل مسخر لهذا الإنسان وخادم له؛ ليعبد -بكل ذلك- الله ﷻ ويؤدي وظيفته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦).. فسواه خادم له، ومن ثم فهو أهم شيء في هذه الكائنات التي تُرى، إن صلح صلح سواه وإن فسد فسد سواه، غيره يعذَّب بسيئاته، وغيره أيضًا يُرحم بحسناته: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾(فاطر:٤٥)؛ لأن ما سوى الإنسان تابعٌ لهذا الإنسان، وإذا آخذ الله الإنسانَ فما الفائدة

من بقاء غير الإنسـان وهو -أساسًا- موجود لخدمة الإنسان؟ بل إن قيام الساعة -على خطورة علاقته الأساسية- بفعل هذا الإنسـان وعبادتـه.. فالكون يُدَمَّر حين لا تبقـى فائدة في هذا الإنسان من حيث رسالته الأساسية وهي عبادة الله ﷻ.

إذن، مـن يخالـط هذا الإنسـان الذي هو الأهـم؟ ومن له الصـدارة والأولويـة والأسـبقية في صنعـه البشـري العادي؟ مـن له الأسـبقية في صياغته وجعله علـى نمط معين؟ هل هو الرجل أم المرأة؟ إن الجواب الواضح في القرآن الكريم وفي الواقع المشاهد هو؛ المرأة.

هذا ما نقصده بـ"إنسانية وظيفة المرأة"، أي إنها متخصصة فـي الاهتمـام بالإنسـان، والرجل متخصص فـي بعض ذلك لكـي يعيـن المـرأة علـى أداء وظيفتها الأساسـية فـي تكامل وانسـجام تـام بناء على خلقته هو، التي بهـا كُلِّف وأُنيطت به تلك الوظيفة، وبناء على خلقتها هي، التي كُلفت بها وأُنيطت بها تلك الوظيفة.

دور المرأة في صياغة الإنسان

للمرأة في صياغة الإنسـان ثلاثة أرباع، وللرجل ربُع، ويفيدنا في تقرير هذا المعنى الاسـتئناسُ بحديث رسـول الله ﷺ الذي كان جوابًـا لسـؤال أحـد الصحابـة: مـن أحق الناس بحسْـن صحابتي يا رسول الله؟ قال: "أمّك"، قال: ثم من؟ قال: "أمّك"، قال: ثم من؟ قال: "أمّك"، قال: ثم من؟ قال بعد ذلك: "أبوك" (رواه البخاري)؛ فأعطـى للمرأة (أي للأم) ٧٥٪ -بلغة حسـابات العصـر- و٢٥٪ هـي التي بقيت للأب. هل فـي الأمر محاباة للمرأة؟ كلا، ولكن الغُنْم على حسب الغُرْم.

والقـرآن الكريـم يشـير إلـى هـذه الحقيقـة حيـن يقول: ﴿وَوَصَّيْنَـا الإِنْسَـانَ بِوَالِدَيْـهِ إِحْسَـانًا حَمَلَتْـهُ﴾؛ فلـم يحملـه أبـوه، وقد قالـت الأعرابية: "حملتَـه خفيفًا، وحملتُـه ثقيلاً.. ﴿حَمَلَتْـهُ أُمُّهُ كُرْهًـا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، ثم في ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُـونَ شَـهْرًا﴾(الأحقاف:١٥)، وفي ﴿يُرْضِعْـنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾(البقرة:٢٣٣) نجـد أن هنـاك فتـرة اسـمها "الحمل"، لا علاقـة للرجـل بها ولا حـظ له فيهـا إلا حظ الحماية العامة والصيانـة العامة، ونجد أن فترة الرضاع لا حظ له فيها، وإنما الحظ كذلك خالص للمرأة.

وكذلك ما يلي ذلك حتى نهاية مرحلة الحضانة أيضًا للأم الأولوية فيها، بل ولها الأسبقية بالشرع والواقع والمنطق وهي مرحلة لها أهميتها.



المرأة بالنسبة للإنسان هي في المركز، وبالنسبة للوحدة الإنسانية هي كذلك في المركز؛ فهي نقطة الانطلاق والبؤرة التي لابد أن نفهمها.. فالإنتاج موطنه وتنميته ورعايته في المرحلة الأساسية، إنما تقوم به المرأة.

وبعد ذلك يأتي حظ الرجل بعد أن تتكون الشخصية. ويرى كثير من الخبراء أن الولد أو البنت -قبل ست سنوات- يكون أكثر من ٦٠٪ من شخصيته النفسية وبنائه الشخصي قد تم وكمل؛ لأن الوليد في هذه المرحلة يبتدئ في التعلم وهو جنين في بطن أمه، ويتعلم بعدُ بطرقه الخاصة عبر أجهزة الاستقبال الخطيرة التي أودعها الله فيه بأجهزته.. فهي التي تستقبل معلومات كثيرة ربما دون أن يكلم الطفل من حوله أو يعرف ما يقول، ولكنه يستقبل ويخزن.

وبعد مدة يبتدئ في الإرسال، لا يعلّمه اللغةَ أحدٌ، ولكنه يخزن المعلومات الكثيرة جدًا.. ليست اللغة فقط، بل يخزن العادات والتصرفات، ويخزن النظرات والإشارات، يخزن كل شيء، ولذلك قال رسول الله ﷺ للصحابية التي قالت لولدها: تعال أعطك، فقال رسول الله ﷺ: "ما أردتِ أن تعطيه؟" قالت: أردت أن أعطيه تمرًا، فقال لها: "لو لم تعطه شيئًا كُتبت عليك كذبة" (رواه الإمام أحمد). هذا الأمر يُستهان به الآن بدرجة فظيعة، فالأب والأم يظنان بأن الولد الصغير ما زال لا يفقه شيئًا ولا يعرف شيئًا، بينما هو في الواقع يعرف العجب العجاب، إن كذبوا سجّل عليهم الكذب، وإن صدقوا سجّل عليهم الصدق، وإن أخلفوا سجّل عليهم الإخلاف، وإن أنفقوا... فكل ما يراه ويحسه ويخزنه. وها هنا نكت كثيرة يعرفها الآباء عن أبنائهم في ملاحظة الأبناء على الآباء دون أن يشعروا.

ومما سبق يتضح أن المرأة -بالأساس- متخصصة فيما يتعلق بصياغة الإنسان ذَكرًا كان أو أنثى، هي المتخصصة قبل الرجل، وخُلقت وصُممت على أساس أداء هذه الوظيفة. ولو أراد الرجل أن ينافسها فيها لما استطاع، بل لا سبيل له إلى ذلك، فلا يستطيع الرجل الحمل، ولا يستطيع الإرضاع.. وكل هذه المحاولات التي تريد تعويض المرأة في بعض الأمور، إنما هي من المضاهاة لخلق الله، وهي محاولات لإفساد النظام العام للاستغناء عن الوظائف الأساسية وتعويضها بالوظائف الاصطناعية، وذلك لا يساوي الأصل أبدًا بتصريح وتحقيق علماء الطب وعلماء التشريح وعلماء البيولوجيا.. كل ذلك معلوم، والدليل على ذلك أن حليب الأم -على سبيل المثال- إذا أُعطي للطفل خلال ستة أشهر بكاملها بعد الولادة، يكون الطفل ملقحًا تلقيحًا طبيعيًا.. فالمناعة للأم تكون للولد طيلة مدة ستة أشهر إن كان يرضع من ثدي أمه.. إنه تصميم كوني قبل مجيء الطفل.. إذن هناك نظام، وهناك تصميم خاص للوظيفة التي صُنعت لها الأثداء، للوظيفة التي صُنعت لها الأرحام.. إن كل ما صنعه الله في المرأة قد صنعه لأمر خاص.

ونحن نعلم أن الإنسان -رجلًا كان أم امرأة- يوجد فيه النقطة الأساسية الخطيرة التي قال عنها رسول الله ﷺ: "إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (رواه البخاري)، هذا الشيء الذي هو في الداخل هو الذي يترجم عنه اللسان، وهو الذي تترجم عنه أعمال الجوارح.. فالحسنات تنبت في القلب قبل الظهور،

والسيئات تنبت في القلب قبل الظهور. ولذلك كانت الحرب ليست خارجية فقط، بل داخلية قبل ذلك: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾(فصلت:٣٦). فمجرد النزغ ينبغي قمعه بسلاح التذكر والتقوى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(الأعراف:٢٠١).

محاربة الوساوس في المهد

ولذلك يجب محاربة الوساوس في المهد، أي القلب؛ حيث إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، إذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس، فالأصل رعاية داخل الإنسان (نفسه وقلبه)، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾(التوبة:٢٥)؛ فسبب الهزيمة أمر داخلي تمثل في الإعجاب بالنفس وبالكثرة: ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥).. فالإشكال في الداخل، والمسلمون في المنطق العام لا يؤتون من الخارج، وإنما يؤتون من الداخل.

فهذا الأمر إنما هو تمهيد لقول الله ﷻ للنساء: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾(الأحزاب:٣٣).. والسؤال: لِمَ هذا القرار؟ لأن النقطة المركزية التي تُحدِث السلام أو تُسبب الحرب، والتي تُحدِث الطمأنينة أو تُسبب القلق والاضطراب، والتي تحدث الهدوء والاستقرار، إنما هي "البيت". فالبيت إذا كان مستقرًّا وسكنًا، كان فيه السكون، يسكن فيه القلب ويطمئن، وتسكن فيه النفس وتهدأ، ويسكن فيه الكيان، وتكون فيه السكينة على أساس أن خارج البيت فيه غير ذلك؛ حيث إن آدم (الرجل) هو الذي يشتغل خارج البيت أكثر، ولذلك قال الله ﷻ لآدم عليه السلام: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:١١٧)؛ فأنت يا آدم الذي تشقى، أما حواء فلا تشقى، لأن أصل وجود هذا الموقع الطبيعي لها، أن تكون بالداخل، بالبيت، ولا يعني هذا أن الرجل لا يستقر بالبيت عند الضرورة والحاجة، وأن المرأة لا تخرج خارج البيت عند الضرورة والحاجة، ولكن التصميم العام والأصل العام، أصل التخطيط وأصل البناء الذي هو على أساس الوظيفة، إنما ينبغي أن يكون هكذا: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(الأحزاب:٣٤)، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾(الأحزاب:٣٣)، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:١١٧).

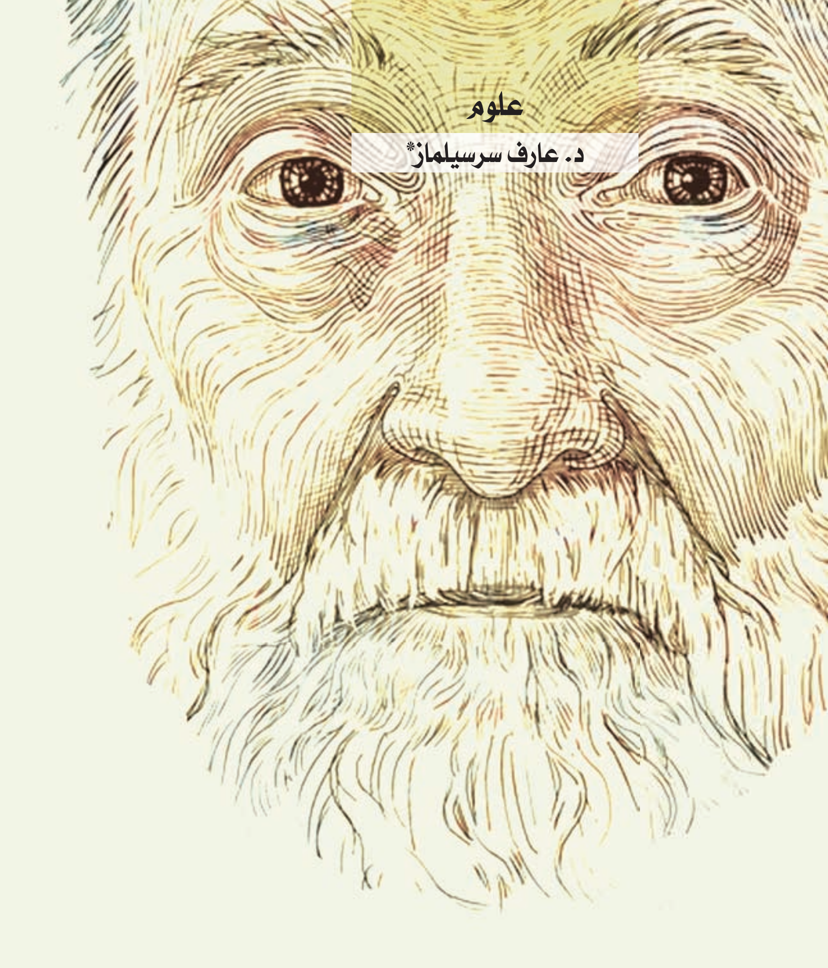
ومن ذلك يتبين أن هذا الشقاء والكدح والنَّصَب والتعب سيكون أساسًا بسبب هذا الخروج، والمرشح له في أصل الخلقة هو هذا الرجل.. إذن البيت مؤسسة، وهذه المؤسسة لها داخل ولها خارج، كالإنسان نفسه؛ له داخل وخارج، ظاهر وباطن.. فهناك من هو مختص أصلاً بذلك الباطن، وهناك من هو مختص بذلك الظاهر وهما معًا متكاملان؛ المختص بالباطن يساعد المختص بالظاهر، والمختص بالظاهر أي الخارج هنا يحمي ظهر المختص بالداخل ويعينه إلى غير ذلك. ولكن أين المرأة من هذا التكامل؟

المرأة بالنسبة للإنسان هي في المركز، وبالنسبة للوحدة الإنسانية هي كذلك في المركز؛ فهي نقطة الانطلاق والبؤرة التي لابد أن نفهمها. أما وظيفة الرجل في هذا الكون، هي التلقيح من ناحية، والحماية والصيانة من ناحية أخرى... وإلا فالإنتاج حقًّا موطنه وتنميته ورعايته في المرحلة الأساسية إنما تقوم به المرأة.

وفي الوحدة الإنسانية كذلك وُضعت المرأة في موقع خاص هو نقطة الانطلاق التي هي البيت، فهي ربّته وسيدته، وهي التي تجعله من قبيل جهنم أو من قبيل الجنة. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. عارف سرسيلماز*



لماذا نَهْرَم؟ وكيف؟

الإنسان كسائر الكائنات الحية، لا يملك أي وسيلة لإيقاف أو تغيير عجلة الزمان؛ طفولة فشباب، فكهولة، فشيخوخة، فموت.

صحيح أن الفرار من الموت أمر مستحيل... ولكن ماذا عن الهرَم؟ هل يمكن منع الهرَم؟

معظم العلماء الذين يبحثون عن إجابة لهذا السؤال، متفقون على أن منع الهرَم أمر غير ممكن. غير أن التجارب التي أجريت بيولوجيًّا وكيميائيًّا وفسيولوجيًّا، والدراسات المتنوعة التي استندت إلى متابعة أحوال الشباب والشيوخ، تحمل آمالاً حول إمكانية الانتقال من مرحلة الكهولة إلى الشيخوخة بأخف أضرار ممكنة.

فقد يتمكن المرء في أحلك الظروف، بل حتى في الفترة التي يتصور أن إحدى رجليه باتت في القبر، من مواصلة أعماله اليومية بكل نشاط، ويقضي تلك الحقبة بلا معاناة بدنية أو مكابدة في غرفة مستشفى، وبدون أن يكون عبئًا على أحد، أي يقابل الموت بسرور وابتسام. هذا ما يحاول الباحثون تحقيقه في دراساتهم الأخيرة.

تخفيف وطأة الشيخوخة

والداعي إلى الحيرة، أن النتائج التي توصّل إليها العلماء كوصفات لتخفيف وطأة الشيخوخة، تتفق مع ما جاء من أوامر وإرشادات في القرآن والسنة حول معالجة المشكلة؛ فبدءًا من الأوامر النبوية التي تحث على تخفيف الطعام، واجتناب الخمر والمخدرات، والأمر بالمشي، والنوم الصحي، وأداء الصلاة، وغيرها مما يتعلق بحياتنا اليومية.. وانتهاءً بالقناعة، والحياة المتوازنة، والتفكر والصبر والتسامح التي تعتبر من الوصفات الحيوية لحياتنا النفسية.. كلها من شأنها أن تساعد

الإنسان على المحافظة على صحته البدنية والنفسية، وذلك هو ما يؤخر الشيخوخة أو يسهل الانتقال إليها، ويساعد على قضاء هذه المرحلة بأقل أضرار ممكنة.

في البداية ركزت الأبحاث التي تسعى إلى فك لغز الهرَم على معرفة معدل الخسائر البدنية التي تحدث نتيجة لتقدم العمر، وحاولت معالجة الموضوع في ظل هذه المعطيات، غير أنها تحولت بعد فترة إلى البحث عن دور وآثار التغذية الصحية وغير الصحية، وممارسة الأنشطة الرياضية، أو اعتياد بعض العادات السيئة في عهد الشباب على تعجيل وتيرة الهرم أو إبطائها. أما الأبحاث الأخيرة فتركز على إيجاد رد على سؤال: "كيف يمكننا الانتقال إلى شيخوخة ناجحة، وكيف نتخطى الشيخوخة بسهولة وبدون معاناة؟!".

أثناء معالجتنا لظاهرة الهرَم، ينبغي ألا نغفل أهمية دور التكوين الوراثي للأفراد؛ إذ لا يمكننا أبدًا تغيير المعلومة البيولوجية المكتوبة في برنامج (D.N.A) من قبَل قلم القدرة الإلهية ونحن في بطون أمهاتنا، والتي تحدد ما إذا كان عهد الشيخوخة سيبدأ في عمر مبكر أو متأخر. فالمعلومات الوراثية التي ورثناها عن أبوينا، والتي تتعلق بوقت الشيخوخة تخرج من القوة إلى الفعل في وقتها المرهون.

ولكن البرنامج الوراثي هذا ليس طليقًا، بل يمكن أن تُضبط سرعته في بعض الأوضاع، ومن ثم يمكننا القول بأنه قد تتأخر شيخوخة فرد ورث من والديه جينات الهرَم السريع، مقارنة بأمثاله إذا ما عاش حياة منتظمة مبرمجة، كما يمكن أن تبدأ شيخوخة فرد آخر في وقت مبكر، مقارنة بأقرانه، رغم وراثته لجينات الهرَم المتأخر.

ما هو الهرَم الطبيعي؟

أول سؤال يخطر على البال في دراسة ظاهرة الهرَم هو: ما الهرَم الطبيعي؟

هنا يجب التمييز جيدًا بين التغيرات التي تدخل على الجسم نتيجة تقدم العمر، وبين التغيرات التي تحصل بسبب الأمراض التي يتعرض لها الجسم. ومن ثم حرص الباحثون على التمييز بين التغيرات التي حدثت نتيجة أمراض معينة، والتغيرات الفيسيولوجية التي لها علاقة مباشرة بتقدم العمر؛ وذلك لرسم صورة واضحة للهرَم الطبيعي.

وفي محاولة لمعرفة العوامل المؤثرة في سرعة الشيخوخة أو بطئها، أجريت بعض التجارب على الفئران؛ فثبت أن الفأر الذي تناول غذاءً زائدًا ازدادت لديه نسبة السعرات الحرارية، وأدى ذلك إلى تقصير حياته بصورة ملحوظة.. وقد تم الحصول على النتيجة نفسها من خلال المتابعات التي أجريت على البشر؛ فثبت أن الأفراد الذين



بـدءًا مـن الأوامـر النبويـة التـي تحـث علـى تخفيف الطعـام، واجتنـاب الخمر والمخـدرات، وأداء الصـلاة، وغيرها مما يتعلق بحياتنا اليوميـة.. وانتهاءً بالقناعة، والحيـاة المتوازنـة، والصـبر والتسامـح التـي تعتبر مـن الوصفات الحيويـة لحياتنا النفسية.. كلها تؤخر الشيخوخة وتساعد على قضاء هذه المرحلة بأقل أضرار ممكنة.

لـم يتناولـوا سـعرات حراريـة زائدة عـن الحاجـة، أي قاموا عـن المائدة قبل أن يشـبعوا، ولا يأكلون إلا عندما يجوعون، تمتعوا بنشاط ملحوظ، وعاشوا أطول من الآخرين.

كيـف يطلق البرنامج الوراثي صفارة إنذار الهرَم؟ هذا هو السؤال الذي تبحث عنه المختبرات المهتمة بعلم الجينات، ونفهم من المعلومات الجديدة أن الشيخوخة تبدأ إثر حدوث انقطـاع في برنامـج (D.N.A) الذي كان يعمل بشـكل طبيعي، وتسـرع وتيـرة الشـيخوخة عنـد تعـرض بعـض الأنزيمـات الهامـة وبرنامـج (D.N.A) إلـى أضـرار، وعقـب ذلك يحدث انكماش في نسـبة الهورمونات ويظهر خلل في نظام المناعة، ويـزداد عدد جزيئات الأوكسـجين الطليقة التي تُعرف بقوتها التخريبية. وهكذا تبرز علامات الشيخوخة في جسم الإنسان بكل وضوح، وهكذا نشاهد تأثير جينات الشيخوخة التي ورثناها عن والدينا بصورة ملحوظة. التوقعات تشير إلى أن معدل عمر الإنسـان سـابقًا كان مرتفعًا، فـي حين انخفضت هذه النسـبة إلى ٧٥ سـنة. أمـا علامـات الشـيخوخة فتبـدأ بالظهور مـا بين ٤٥-٥٠ سـنة من العمـر؛ حيث يطرأ علـى أعضاء مختلفة بعض التغيرات وبنسـب متفاوتـة، فتزداد نسـبة حوادث سـرطان الثـدي والرحم لدى النسـاء، مـع توقف نظام التناسـل عن العمـل، وتتدهور صحـة العظـام، ويظهـر ضعـف القلـب والرئة والكلى في السـنوات مـا بين ٧٠-٧٥ سـنة. كمـا يدخـل الخلل علـى آلية ضبط نسـبة حرارة الجسم، وبالتالي تهبـط مناعتـه إزاء التغيـرات المناخيـة التـي تحـدث حولـه، بالإضافـة إلـى ضعفـه فـي معالجـة الجـروح، وتزايـد وقائع الحساسـية التي تأتي نتيجة نظرة الجسم لبعض خلاياه كأنهن أجنبيات دخيلات ليست منه.

كما تضعف القدرة التناسـلية عند الرجال، وتتعطل القدرة على تحديد المسافة للعين، وينخفض رد الفعل البدني والذهني لبعض المنبهات، ويظهر تصلب في الشرايين بشكل ملحوظ، إلـى جانـب مشـاكل فـي المفاصـل. كذلك يحصـل تضخم فـي حجـم بعض خلايا العصـب في الدمـاغ وتتعطل أخرى.

ومـع أن معرفـة موعد ابتـداء الهرَم أمـر وراثي خارج عن نطاق إرادتنا، إلا أن لإرادتنا دورًا في السيطرة على سرعة وتيرة الهرَم ونسبته، وتوجيه بعض العوامل التي تؤثر فيه، أي بإمكاننا أن نسـتعد لأيام الشـيخوخة بصورة أفضل بالتخلي عن بعض العادات السلبية، والتحلي ببعض العادات الإيجابية. ولتحقيق هـذا الغرض ينبغي أن نعلـم طبيعة الهـرَم البيوكيميائية، لكي نتمكن من معرفة المواقع التي يجب التركيز عليها ومعالجتها.

آليات للإصلاح والترميم

هناك نظرية تقول بأن جزيئات الأوكسجين الطليقة، الموجودة داخـل الخليـة تقوم بتدميـر الجزيئات الحياتية مثـل (D.N.A) والبروتينـات والدهـون، مما يؤدي إلى إهرام الجسـم، ولكن بالمقابل هناك وحدات أخرى في الخلية تم برمجتها لإصلاح مـا ينتج من دمار. أجل، بفضـل ما رُكّب في نظام الخلايا من آليات للإصلاح والترميم، يتم إزالة الدمار المؤدي إلى الهرَم قبل أن يكبر حجمه، أو تضبط جزئيات الأوكسجين المدمرة. وهكذا يتم تأخير الشيخوخة عن طريق إبطاء سرعتها.

علـى سـبيل المثال، هناك أنزيمـات تقوم بعملية الإصلاح هـذه مثل أنزيم (Super Oksid Dismutase)، وقد أثبتت التجارب أن الحيوانـات التي لا يحتوي جسـمها على هذه الأنزيمات، شاخت بشكل أسرع مقارنة بأمثالها التي تملك هذه الأنزيمات. ولكـن هناك بروتينـات أخرى في الكائن الحي تمنع الجسـم مـن إنتاج هذا النوع من الأنزيمات، وهذا يعني مواصلة الهرَم



مسيره، إلا أن الباحثين يتطلعون إلى الحيلولة دون ظهور تلك البروتينات المانعة، وهذا يعني مواصلة آليات الإصلاح لأعمالها بصورة مطردة ودون أي خلل.

مهما يكن الأمر، فسيأتي يوم تعجز فيه هذه الآلية عن العمل بشكل جيد وتتعطل، ومن ثم تبدأ عجلة الشيخوخة بالدوران من جديد. المهم إذن، طول أو قِصَر عمر نظام الإصلاح الوقائي هذا. فمن تعطل نظام الإصلاح لديه دخل مرحلة الشيخوخة ولو كان في الثلاثين من العمر، بينما نرى من قد بلغ الخمسين يتمتع بقوة الشباب ونشاطه بفضل ما يقوم به نظام الإصلاح من عمل ممتاز.

معادلة الدمار والإصلاح في الجسم

والسؤال الأهم في ضوء ما سبق: كيف نتمكن من الحفاظ على معادلة الدمار والإصلاح في الجسم بطريقة مثالية؟

اللافت للنظر أن النصائح التي وردت ردًّا على هذا السؤال، ركزت على الجانب النفسي مثل اطمئنان النفس والأسرة والبئية، أكثر من الجانب المادي مثل الإقلال من كمية الطعام، أو الإكثار من الحركة، والاهتمام باختيار بعض الأغذية على الخصوص. وقد أثبتت الدراسات التي أجريت في السنوات العشرين الماضية وسط مجموعات مختلفة من القاطنين في دُور المسنين، ومنفردين وأرامل ومتقاعدين، ومن يعيشون مع أسرهم... أن الأشخاص الذين ينعمون في ظل حياة عائلية سعيدة مع أبنائهم وقد واظبوا على نشاطاتهم اليومية حتى بعد التقاعد، وخالطوا الشباب وسط إجلال وتقدير، قد أبطأت وتيرة الشيخوخة لديهم بشكل كبير؛ ولأن نظام الإصلاح الوقائي يعمل بشكل جيد، فهم يتمتعون بجسم يمتلك المناعة والمقاومة ضد الأمراض، ويقضون فترة الشيخوخة بصحة رائعة.

وبالمقابل ثبت أن الأشخاص الذين يعيشون منفصلين عن أبنائهم أو في دور المسنين أو فرادى بعد فقدانهم لأزواجهم، أو منعزلين عن المجتمع بعد التقاعد بلا نشاط ولا حركة... هؤلاء قد شاخوا بشكل سريع، وفقدت أجسامهم المقاومة ضد المرض، فماتوا بعد فترة قصيرة.

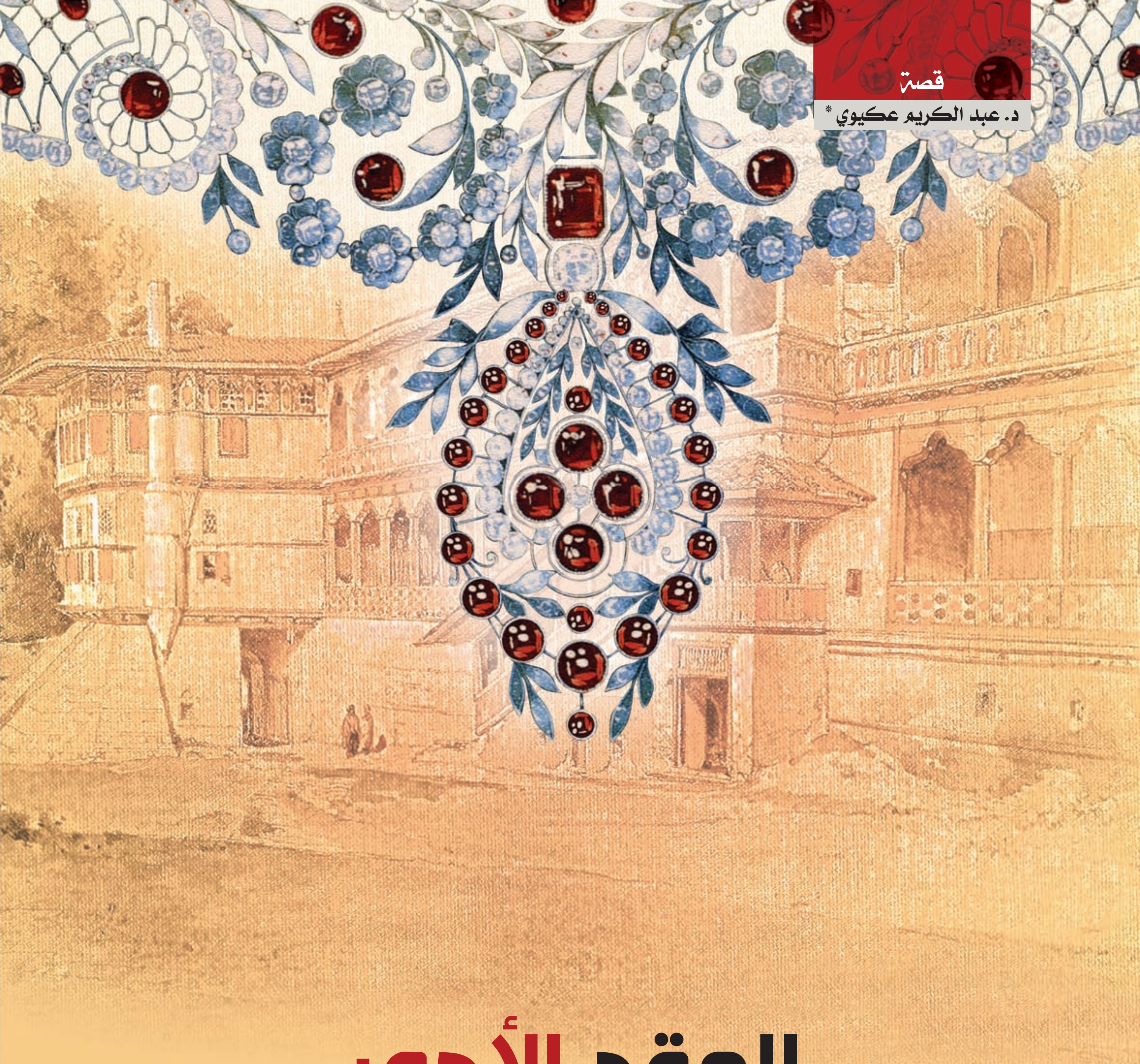
جسم صحيح ونفسية سليمة

ومن المعروف والملاحظ، أن الأفراد الذين يقومون بشؤونهم الخاصة بأنفسهم، ومن يعملون في سبيل غاية مثالية كأن يكونوا أعضاء في مؤسسات خيرية، ومن درجوا على القيام بنشاطات يومية منذ شبابهم في مواعيد معينة دون إهمال، ولم يقتربوا من المواد والعادات المضرة مثل التدخين والخمر والقمار، وقللوا من طعامهم دون إخلال ببرنامج الغذاء المنتظم، وابتعدوا كذلك عن النزاعات العائلية... هؤلاء نعموا بجسم صحيح ونفسية سليمة مستقيمة، كما نجحوا في ضبط التوازن بين الجزيئات المدمرة وآليات الإصلاح بصورة مثالية، وكان لذلك الفضل الكبير في التخفيض من سرعة عجلة الشيخوخة عندهم.

هذا ومهما أُخذت التدابير اللازمة، فقد يفاجأ الإنسان بأمراض تحدث في جسمه انهيارات فادحة تلعب دورًا كبيرًا في انتشار آثار الهرَم في الجسم، إلا أنه ينبغي أن نميِّز هذا من الهرَم الطبيعي.

معظم الباحثين يسلّمون أن الوقوف في مواجهة ظاهرة الهرَم أمر مستحيل، أما الدراسات التي تجرى حولها فهي محاولات للعثور على إجابات لأسئلة ملحة مثل "كيف نقضي شيخوخة قليلة المعاناة؟ أو كيف نختم حياتنا الدنيا بسلام؟". ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



قصة

د. عبد الكريم عكيوي*

العِقد الأحمر

في لحظة عزلة وانفراد، وقف أبو الوفاء بن عقيل[1] يتأمل حاله وهو شاب أعزب، تتحرك في نفسه رغبة الاقتران بفتاة تبادله الحب وتشاركه أحوال الحياة بمسراتها وأحزانها، لكن كيف يبلغ مناه وقد حفت به أحوال الفقر والحاجة. لم يجد بدًّا من العفة والاشتغال بالعلم، فتناسى أمر الزواج وأقبل على طلب العلم الشريف. دخلت أشهر الحج فعقد العزم على الحج من عامه.

خرج أبو الوفاء من بلده "بغداد" وهو عالم شاب أعزب

يأخذه الشوق إلى بيت الله الحرام... أحرم بالحج ودخل مكة ملبيًا، لا يكف عن ذكر الله تعالى وسؤاله من حسنة الدنيا وحسنة الآخرة. وبينما هو في الحرم المكي يؤدي المناسك، إذا به يجد على الأرض عقدًا أحمر من لؤلؤ نفيس جدًّا، فأخذه والتقطه... بعد لحظة سمع مناديًا ينادي: "يا معشر الحجاج، من وجد عقدًا أحمر فليأت به إلى مكان كذا وكذا وله مكافأة حسنة". جاء أبو الوفاء إلى المكان المعين فوجد رجلاً وقورًا تبدو عليه آيات العلم والدين والورع والتقوى... وصف له العقد فعرف أنه صاحبه فرده إليه وترك المكافأة قائلاً: "إنما هو عقدك وليس لي منه ولا من مالك شيء". شكره الرجل ودعا له بالخير وبـ"أن يعوضه الله خيرًا منه".

قضى أبو الوفاء حجه ومكث بضعة أشهر بـ"مكة"، ثم عزم على العودة إلى بغداد... وفي طريقه إلى "بغداد" مرّ بمدينة "حلب" في بلاد "الشام"، فدخلها بقصد لقاء عالمها وإمام مسجدها الجامع وقد كان يسمع عنه وعن علمه وورعه... كان الزمان أول ليلة من رمضان، فأتى مسجدها الجامع فسأل عن إمامه فأخبروه أنه قد مات منذ بضعة أيام.

بعد يومين من مكوثه في "حلب"، وبينما أبو الوفاء يستعد لاستئناف سفره، جاءه نفر من أعيان البلد، بعد أن عرفوه وأخبروا بسعة علمه وورعه، فأشاروا عليه بالبقاء معهم في حلب يؤمهم في التراويح، ويعلمهم مما فتح الله عليه من علم ومعرفة.

أقام أبو الوفاء في "حلب" شهر رمضان يؤم الناس في المسجد الجامع، ويعقد درسًا للعلم والوعظ كل يوم... أعجب الناس بحسن تلاوته، وشدهم إليه سعة علمه وحسن وعظه، وقدرته على تحريك القلوب وتذكيرها بالله تعالى، فأحبه أهل حلب وتعلقوا به.

اجتمع أعيان حلب للتشاور في أمر المسجد الجامع وفي أمر إمامته، فاجتمع رأيهم على أن يستبقوا أبا الوفاء إمامًا لهم. وحتى تعظم رغبته في البقاء بـ"حلب" أشار أحدهم أن يعرضوا عليه الزواج من بنت إمامهم وقد تركها وحيدة لأنه لم يكن له من الولد غيرها.

في اليوم التالي وبعد صلاة العشاء رجع أبو الوفاء إلى منزله، فجاءه نفر من أعيان حلب، وبعد أن استأنسوا به واستأنس بهم تكلم أحدهم قائلاً:

- يا أبا الوفاء، جئناك لأمر عظيم عندنا نعرضه عليك ونرجو أن توافقنا عليه.

- خيرًا إن شاء الله.

- إن من فضل الله علينا أن جاء بك إلى "حلب" فأقمت عندنا شهر رمضان المبارك، وقمنا معك من الليل ما نرجو به لنا ولك الأجر العظيم عند الله تعالى، وأخذنا من علمك ما رغبنا في المزيد، وإن أهل حلب قد استأنسوا بمقامك بينهم وتعلقت بك قلوبهم.

- هل معنى هذا أنكم تطلبون مني البقاء في حلب؟

- أجل يا أبا الوفاء، يعز علينا فراقك، وأنت شاب أعزب، وإننا نشير عليك بالزواج، وإن شيخنا وإمامنا -رحمه الله- ترك بنتًا لم يكن له من الولد غيرها، وإن الله تعالى قد أتاها من الجمال والمال والدين والورع ما يرغب الرجال فيها، فإن شئت تزوجتها وأقمت عندنا وأنت بيننا صاحب الفضل الأسمى والمقام الأعلى.

- أشكر لكم حسن ظنكم وجميل عنايتكم، وأما ما طلبتم فلا جواب لي حتى أستشير وأستخير.

أقام أبو الوفاء أيامًا بعد ذلك يصلي صلاة الاستخارة يسأل ربه تعالى أن يلهمه الصواب، حتى أصبح يومًا وقد اطمأنت نفسه إلى الزواج، وتعلق قلبه بالفتاة التي وصفت له أشد ما يكون التعلق.

أبلغ أبو الوفاء الناس موافقته على المقام والزواج، فأعدوا له عرسًا يليق بمقامه وبدأوا في تجهيز العروس استعدادًا لليلة الزفاف.

دخل أبو الوفاء على عروسه... فلما نظر إليها سحره جمالها، وأخذ بقلبه استنارة وجهها وبهاء محياها وما يلوح من عينيها من سمات الحياء وعلامات العفة والصلاح. لم يشعر أبو الوفاء حتى سيطرت عليه دهشة الدخول... فإن لكل داخل دهشة كما يقال... فطأطأ رأسه فنظر إلى عنقها فإذا هو مزين بعقد جميل أحمر مثل الذي التقطه في "مكة"، فبدت على وجهه سمات العجب والدهشة! لما رأت العروس تغير وجهه فزعت وخافت أن يكون رأى منها شيئًا يكرهه. بعد لحظة صمت ووجوم، استعادت فيها العروس أنفاسها وتمالكت نفسها، فاستجمعت قواها لتسأله عن حقيقة الأمر.

- يا أبا الوفاء، أستحلفك بالله أرأيت شيئًا تكرهه؟ أرأيت مني شيئًا.

- ليس في الأمر شيء مما تقولين، وإنما عقدك هذا!..

– ما شأن عقدي هذا!؟

– لما رأيته ذكرت عقدًا مثله التقطته في "مكة" ورددته إلى صاحبه، وكأنه هو.

– أأنت هو!؟

فجعلتْ تبكي بكاء شديدًا... فلما هدأت من البكاء قال لها:

– أسألك بالله ما الذي أبكاك؟

– إن العقد الذي وجدته في مكة... والله إن هذا هو، وذلك والـدي. وأما الـذي أبكانـي، فإنني ذكرت والـدي وقد كنت بنته الوحيدة وكان يحبني أشـد مـا يحب الرجل ولده، وكنت كثيرًا ما أسـمعه يدعو فيقول: "اللهم زوج ابنتي رجلاً صالحًا أمينًـا، يكون فـي أمانته مثـل الرجل الذي رد إلـيّ عقدي"... فـكان الرجل صاحب العقد عندي في المقام الشـريف أذكره كلما سمعت دعاء والدي فتعلقت به من غير أن أعرفه... وقد علمتُ الآن أن الله تعالى استجاب دعاء والدي فزوجني رجلاً أمينًـا أحببتـه قبـل أن أراه، فبكيت فرحًا مـن رضوان الله على والدي لما استجاب دعاءه، ومن رعايته تعالى لي بعد وفاته.

لـم يتمالك أبو الوفاء نفسـه من الفرح والسـرور فانهالت دموعه، واحتضن عروسه، فجعلا يبكيان فرحًا باقترانهما على تقوى من الله ورضوان، ومودة بينهما وعناية الله تعالى بهما.

كان أبـو الوفـاء خير زوج لزوجته، وكانـت له خير زوجة يجمعهما حب جميل ووفاء عظيم.

بعـد بضعة أشـهر من الـزواج والعشـرة الطيبـة الجميلة، مرضت الزوجة ثم ماتت من مرضها. حزن أبو الوفاء أشد ما يكون الحزن، ثم سلم أمره لله تعالى.

لـم يعـد أبـو الوفاء يطيـق البقاء فـي "حلب"، فعـزم على الرحيـل إلـى بلـده "بغـداد"... جمـع الناس وطلـب إحضار الورثـة، فلـم يكن لها وارث غيره. جعل أبـو الوفاء ينظر فيما ورثـه من الدراهـم والدنانير وغيرها من المـال والمتاع... ثم وقـع نظـره على العقـد الأحمر فذرفـت عيناه. فجمـع العقد والميراث ثم رجع إلى بغداد. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر – أكادير / المغرب.

الهوامش:

(1) هو أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٥١٣ للهجرة. وهـي قصـة واقعية ليـس فيها من زيادة ولا تعديل سـوى مـا يقتضيه فن القصص من استكمال الفراغ في بعض الأحداث.



د. عبد الإله بن مصباح*



القرآن واستنهاض العقل

لقد جاء القرآن الكريم بمظاهر شتى من الإعجاز، لتكون أدلة في الدعوة إلى سبيل الله، وحتى يتبين للعالَم أن هذا الكتاب الذي أُنزل على سيدنا محمد ﷺ لا يمكن أن يصدر عن غير كلام الله، فكان من جملة ما حمل القوة على استنهاض العقل، للدفع بالإنسان إلى بناء فكر علمي قويم على أسس منهاج عقلاني حكيم.

فلئن كان الفكر قديمًا قد تبنى الطرح الخرافي المبني على السرد الأسطوري في استقرائه للوقائع والأحداث، فإن القرآن بنورانيته المعجزة جاء ليخرج الناس من ظلام الفكر الوهمي إلى نور اليقين العلمي. ثم إذا كان المنهاج العلمي المعتمَد حديثًا في العلوم التجريبية، يقوم على أسس الملاحظة والفرضية والتجربة لبناء الحقيقة العلمية، فإن المنهاج القرآني قد سبق إلى ذلك بقرون، حيث استوعب بإعجازه كل هذه الخطوات، بل وتجاوزَها إلى حد التوثيق الزماني والمكاني لموضوع البحث حتى يرقى بنتائجه من نسبية الحقيقة إلى إطلاق الحق.

فإذا وقفنا على قول الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(يونس:١٠١)، فإننا سنجد فيه من الدقة في التعبير ما إن قوته لتستنهض العقل لسبر أغوار الكون بمنهاج علمي حكيم. فثمة فرق كبير بين قول: "انظروا السماوات والأرض" وقول: ﴿انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛

فالأول يدعو إلى الملاحظة فقط وهي نظرة الظاهر، وأما الثاني فإنه تضمن عبارة: ﴿مَاذَا فِي﴾ التي تفيد بالإضافة إلى الملاحظة الافتراض ثم الاختبار، أي التجربة، وهي نظرة الباطن، لأن أداة الإشارة "ذا" التي جاءت بين "ما" و"في" تدل على سر تستبطنه السماوات والأرض هو المقصود بالإشارة والمطلوب من النظر الذي جاءت به العبارة.

وهذا السر إنما هو نور المكوّن الذي تعكسه كل المكوَّنات في السماوات والأرض، والذي إن وجهتنا إليه الآية بهذه العبارة فلأجل تحريك عقولنا؛ حتى تتفتّح الأفهام وتشرق على القلوب بأنوار التفكر والإمعان. فإذا تم ذلك انقلبت تلك الدلالات الكونية في حق المكوّن مدلولات، وأشرقت أنوارها على القلب معارف وتجليات دالة لك عليه لا على أثره، لأنه ما غاب سبحانه حتى يُستدل بأثره عليه، ولكنه الدليل الحق على كل شيء نظرْتَ إليه.

إذا كان المنهاج العلمي المعتمَد حديثًا في العلوم التجريبية، يقوم على أسس الملاحظة والفرضية والتجربة لبناء الحقيقة العلمية، فإن المنهاج القرآني استوعب بإعجازه كل هذه الخطوات، بل وتجاوزَها إلى حد التوثيق الزماني والمكاني لموضوع البحث حتى يرقى بنتائجه من نسبية الحقيقة إلى إطلاق الحق.

العلم مَشاع بين الناس والتزود منه حق، إلا أن المسلمين منذ فجر الإسلام اعتبروه واجبًا، لأنه ضرورة في فهم حقيقة الدين: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩)، ووسيلة للدعوة إلى الله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾(النحل:١٢٥). ولا غرابة في هذه الحقيقة، لأن العلم كان دأب كل الرسالات السماوية منذ آدم عليه السلام الذي قال في حقه ربُّه ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾(البقرة:٣١)، إلى إبراهيم عليه السلام الذي كانت دعوته إلى التوحيد من منطلق علمي: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥)، إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ الذي جمعت رسالته كل علوم الأنبياء السابقين.

ولعل في الآية التي جعلناها مدخل الباب السابق والتي ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الزمر:١٠)، ما يسلط الضوء على تفاصيل هذه الحقيقة. فأولوا الألباب هم الذين وصفهم الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠). إذن، هم الذين ينطلقون من هذه المراجع الكونية التي أحكمت آياتها في السماوات والأرض، يبتغون ببصيرتهم استجلاء تلك الأسرار الكامنة خلف المكونات الدالة على عظمة المكون ودقة إحكامه لعالم الأكوان. فهؤلاء إذن، هم المتفكرون الذين فتح الله بصائرهم على أسرار الكون ليسترشدوا بها على وحدانية المكون، فكانوا لا يفصلون الفكر عن الذكر كما وصفهم الله تعالى في بقية الآية بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١).

فهؤلاء كان تفكرهم ذكرًا وذكرهم تفكرًا، لأنهم ما استعملوا عقولهم في استظهار الحقائق، ولا استدلوا بوهج الأنوار المشرقة في قلوبهم على بواطن الخلائق، إلا من خلال استحضارهم لمصدر النور الساري فيها وهو الله ﷻ الذي لولا نوره ما ظهر حق في ظلمة الوجود كما قال ابن عطاء الله السكندري رحمه الله في إحدى حكمه:[1] "الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهور الحق فيه. فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار وحُجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار".

فكانت الدعوة إلى النظر في الكون لا من أجل الكون، ولكن من أجل المكوّن حيث قال -رحمه الله- في حكمة أخرى: "أباح لك أن تنظر ما في المكوَّنات، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكوَّنات ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، وفتح لك باب الأفهام، ولم يقل انظروا السماوات لئلا يدلك على وجود الأجرام". وفي تفسير هذه الحكمة يقول العارف بالله الشيخ أحمد بن عجيبة الحسني رحمه الله:[2] "فتح لك باب الأفهام؛ جمع "فهم"، أي فتح لك باب العلم لتدخل بها من ظاهر القشر إلى باطن اللب، حتى تعرفه في كل شيء وتفهم عنه كل شيء، ولو قال الحق تعالى: قل انظروا السماوات، لدلّك على الأجرام وسدّ لك باب الأفهام".

وهذا منطقي، لأنه إذا قلت لك: انظر هذه العلبة، فإن

نظرك سينحصر في ملاحظتها بنظرة سطحية تقع على شكلها ولونها وما إلى ذلك مما هو متعلق بنظرة الظاهر.. أما إذا قلت: انظر ما في هذه العلبة، فإن نظرك سينفذ إلى داخلها مفترضًا أن يكون فيها شيء وقد لا يكون. وهذا القول يدفع بالعقل تلقائيًا لوضع الفرضيات.. أما إذا قلت لك: انظر ماذا في هذه العلبة، فهنا ستُركز نظرَك على شيء موجود بداخلها، لأن حرف الإشارة "ذا" يدل على أن شيئًا ما بداخل العلبة أطلبك لمعرفته، فهذا القول سيستدعيك لأن تلاحظ العلبة أولاً، ثم تضع الفرضيات حول ما يمكن أن يكون هذا الشيء الذي بداخلها ثانيًا، فإذا وصلتَ إليه انكببتَ عليه تختبره من كل الزوايا محاولاً معرفة حقيقته، وتلك هي المرحلة الأخيرة في البحث بعد الملاحظة والفرضية وهي التجربة المفضية إلى الحقيقة. وبذلك فالقول الثالث يجمع في عبارته عناصر الملاحظة والفرضية والتجربة وعليه يقوم منهاج البحث في العلوم التجريبية.

فإذا كانت الدعوة الموجهة إلينا في موضوع السماوات والأرض جاءت بمثل هذا القول الأخير فلسر تستبطنه نحن مطالبون بالكشف عنه، وهو ما يعطي للقرآن الكريم قوته الخارقة على استنهاض العقل، ويجعله مفتاح باب الفهم لمن أراد الدخول من ظاهر القشر إلى باطن اللب، وإلا ما جاء استفهامه عن مستويات أهل العلم مختومًا بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الزمر:١٠)، من اللب الذي هو أصل الشيء وخالصه وقلب الشيء لا قالبه.

ودعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام خير شاهد لنا على صحة هذا النهج؛ فلما جاء عليه السلام لدعوة قومه وكان أول المسلمين، ما أرسله الله تعالى وكلفه بالرسالة إلا من بعد أن كشف له سبحانه عن أسرار الكون، فكانت دعوته عليه السلام أول إعلان جاء بموجب تلك الوقائع، مقرًّا بأن العلم هو أساس اليقين، وعلى نهجها جاءت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ متممة لكل التفاصيل، حيث كانت أول سورة نزلت في القرآن الكريم: ﴿اقْرَأْ﴾(العلق:١)، للتأكيد على مكانة العلم ودوره في ترسيخ اليقين. فكان التوجيه الرباني دعوة صريحة إلى الناس للتفكّر في ملكوت الله والتدبّر في آياته قصد الاستدلال على قدرته وبلوغ اليقين، وهي دعوة تُلزم كل مسلم بالنظر في ملكوت الله وتحثّه على البحث في مجالات الخلق وتحمّله عبء العمل به، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٥)؛ والملكوت هو سلطان الله وقدرته التي لا يدركها من وقف مع ظاهر الملك، وإنما من نفذت بصيرته إلى شهود النور الباطني لعالم السماوات والأرض. فمن لم يحمّل نفسه عناء الإحاطة بحقائق هذه الأشياء والعمل بمضامينها، أورد موارد الجهل فأدخل مداخل الباطل. قال الله تبارك وتعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ﴾(النمل:٨٤-٨٥). وفي تفسير هذه الآية قال القرطبي رحمه الله: "أي كذبتم جاهلين غير مستدلين. وأضاف أن هذا تقريع وتوبيخ من الله، أي: ماذا كنتم تعملون حيث لم تبحثوا عن الآيات ولم تتفكروا ما فيها".

وهنا يجب التنبيه إلى شيء مهم تبرزه صيغة الآية التي جعلت عدم العلم بالآيات معطوفًا على التكذيب بها، وذلك بواسطة واو الحال: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾، فهذا يفيد أن التكذيب بالآيات، إنما نتج عن عدم الإحاطة بها علمًا "كذبتم والحال أنكم لم تحيطوا بها علمًا". ولهذا جاء التقريع منه سبحانه في قوله: ﴿أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للتأكيد على أن هذا الكون بكل مكوناته الظاهرة والباطنة التي كان الإنسان يعيشها بحواسه ومداركه، إنما هو آيات ناطقة بعظمة مبدعها، وبصائر تعصم الناس من الجهل حتى لا يقعوا في التكذيب. يقول ربنا جل وعلا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(الأنعام:١٠٤). وقد فسر القرطبي رحمه الله البصائر بجمع بصيرة؛ وهي الحجة والبينة الظاهرة، وذكر أن "الحق سبحانه وصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها، إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره". ثم أضاف رحمه الله أن "من لم يستدل صار بمنزلة الأعمى وعلى نفسه يعود عماه". ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهوامش:

(١) الحكم العطائية، لابن عطاء الله السكندري المالكي (ت٧٠٩هـ)، شرح وتحليل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ٢٠٠١.

(٢) إبعاد الغمم عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم، لأحمد بن عجيبة الحسني (ت١٢٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩.

خلف أحمد محمود أبو زيد*

المكتبات
منابع أصولنا الحضارية



إن التأريخ لنشأة المكتبات الإسلامية ودراسة أوضاعها، إنما هو تاريخ للحضارة الإسلامية التي قامت على حب العلم وتقدير العلماء، مع الاستفادة من علوم ومعارف الآخرين، بغية الوصول إلى منظومة علمية شاملة ومنهجية متكاملة تقدم كل ما هو نافع ومفيد من تراث إنساني للبشرية جمعاء. ومن أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى، سعى الخلفاء ومحبو العلم في مختلف العصور، على جمع كل ما تقع عليه أيديهم من كتب ومخطوطات في أماكن أطلقوا عليها خزائن الحكمة أو بيوت الحكمة أو دُور العلم... ومهما اختلفت هذه التسميات، فإنها اتفقت في أن الجزء الرئيس منها كان الكتب والمراجع والمخطوطات... حيث قامت هذه المكتبات بدور رئيس في بناء الحضارة، ونشر الثقافة والعلوم، وتوطيد الصلات العلمية بين أفراد المجتمع المسلم من ناحية، وبينهم وبين الشعوب والأمم المختلفة من ناحية أخرى... حيث إن هذه المكتبات لم تكن فقط أماكن لاقتناء الكتب، بل كانت أيضًا منارات وجامعات لنشر العلم والثقافة تضم الدروس الدينية والأدبية والعلمية؛ حيث يجلس فيها القراء والفقهاء واللغويون والأطباء والفلاسفة وغيرهم في مكان واحد، يحملون هدفًا واحدًا هو نشر العلم والثقافة، في جو ساده التسامح والحوار البنّاء وحرية البحث العلمي.

مكتبة بيت الحكمة في بغداد

كانت مكتبة بيت الحكمة التي أسسها العباسيون بـ"بغداد" أول صرح ثقافي أقامه المسلمون، كما كانت أعظمها شأنًا وأكثرها أثرًا لما حوته من الكتب النفيسة والمخطوطات النادرة في شتى العلوم والمعارف بمختلف لغات ذلك العصر. وترجع النواة الأولى في وضع لبنات هذا الصرح الثقافي الكبير إلى خلافة أبي جعفر المنصور، الذي كان أول خليفة عباسيٍّ اهتم بالعلوم بعدما رأى اختلاط العرب بالفرس والروم وأنَّ الحاجة تدعو إلى "معرفة علوم الفرس واليونان، فوجه اهتمامه إلى ترجمة الكتب من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية، من كتب في الفلك والرياضيات والطب

والأدب، كما بدأ في عهده التدوين في الفقه والحديث والتفسير والتأريخ". فقد جمع المنصور هذه الكتب في خزانة كانت النواة الأولى لمكتبة بيت الحكمة، إلا أن الازدهار الحقيقي لهذه المكتبة يرجع للخليفة هارون الرشيد، الذي رأى بعد أن كثر عدد العلماء في بغداد أن ينشئ لهم بيت الحكمة، ليكون بمثابة أكاديمية علمية يجتمع فيها المعلمون والمتعلمون على حد سواء، كما حرص الرشيد على تزويدها بالكتب التي نقلت من بلاد الروم والقسطنطينية ومصر والشام، كما أضاف لها خزائنه مما اجتمع لديه من كتب فاتسعت خزانة الحكمة، التي صار لها أقسام متعددة لكل منها مَن يقوم بالإشراف عليه، ولها مَن يتولى ترجمة الكتب المختلفة إلى العربية... فكان يوحنا بن ماسويه يتولى أمر الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من بلاد الروم بعد أن فتحها، وجعله الرشيد أمينًا على ترجمة تلك الكتب وكان أكثرها في الطب، وعين له كتّابًا مهرة لمساعدته... وكان أبو الفضل بن نوبخت الفارسي يقوم بترجمة كتب الحكمة الفارسية إلى العربية، كما أصبح لبيت الحكمة مجلدون يجلدون الكتب ويعتنون بزخرفتها وتنميقها.

وفي عهد المأمون بلغ الاهتمام ببيت الحكمة ذروته، حيث عمل المأمون على توسيع بيت الحكمة بزيادة عدد كتبها وبما يرد من كتب عديدة من بلاد الروم وغيرها، كما أرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب... ويروي ابن النديم: "أن المأمون كان بينه وبين إمبراطور الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع، فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف ابن مطر، وابن البطريق وغيرهما بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية، وبعد أن عادوا إليه مزوّدين بالكتب التي وقع اختيارهم عليها، أمرهم بنقلها إلى العربية". هذا وقد أنشأ المأمون إلى جانب مكتبة بيت الحكمة معهدًا رسميًّا للترجمة، ويعد هذا المعهد من وجوه كثيرة، أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد مدرسة الإسكندرية التي تأسست في القرن الثالث قبل الميلاد زمن الإسكندر المقدوني. وقد تُرجم في عهده الكثير من الكتب اليونانية نذكر منها؛ "الحكم الذهبية

إن كل فكر قادر على التغيير هو فكر يبدأ بقراءة معاصرة للتراث، فدراسة التراث هي دراسة لبناء الحاضر واستشراف المستقبل، وعلى هذا يتعين علينا الاهتمام بدراسة تراثنا المكتبي وتأصيله، كي نعرف ماضينا الذي نهتدي من خلاله لمستقبلنا.

لفيثاغورث وبعض المصنفات لأبقراط وجالينوس في الطب، وكتاب السياسة والمدينة لأفلاطون، وكتاب المقولات والطبيعيات لأرسطو"... كما جعل المأمون من مكتبة بيت الحكمة مجمعًا كبيرًا لنشر الثقافة والعلم بين الناس، إذ إنه يسَّر لطلاب العلم الاطلاع على الكثير من مؤلفات علماء وفلاسفة اليونان منقولة إلى اللغة العربية... كما اهتم المأمون بختم الكتب الهامة بخاتمه، حتى تكون في مأمن من السرقة.

وفي عهد الخليفة المتوكل تم تجديد مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد. ومن الأمور التي تحسب للخلفاء والأمراء الذين أقاموا بيت الحكمة، أنهم قد حرصوا على إقامة الحياة العلمية بين أركانه على أساس الحرية، فلا وجود للتعصب الذميم أو التزمت البغيض، بل كان الفلاسفة والمفكرين يتناظرون في حرية وصراحة، ويتعلم أهل الملل والنحل ما يبدو لهم دون حذف أو حذر. وإمعانًا في هذه الحرية التي لا تعرف تفضيل جنس على آخر أو طائفة على أخرى.

وقد تركت مكتبة بيت الحكمة أثرًا كبيرًا لدى العديد من الوزراء والكبراء، الذين حرصوا على إنشاء خزائن ومكتبات خاصة وعامة أسوة بمكتبة بيت الحكمة، فأنشأ علي بن يحيى المنجم خزانة للحكمة أقامها في ضيعته بـ"كركر" من نواحي "القفص" في بغداد، وهي خزانة كتبٍ عظيمة قصدها طلاب العلم يقيمون ويتعلمون فيها -على نفقته- صنوف العلم والأدب، مبذولة لهم الأرزاق، مغدقة عليهم العطايا.

وكذلك الأمر بخزانة الوزير الفتح بن خاقان، الذي اشتهر بولعه بالكتب وجمعها حتى توفرت لديه مكتبة من أكبر المكتبات في عصره... وقد استوزره المتوكل، وقيل عن شدة شغفه بالقراءة والاطلاع: "إذ كان جالسًا في قصر المتوكل وأراد أن يقوم إلى المتوضأ، أخرج من سلق موزته كتابًا لطيفًا فلا يزال يطالعه في ممره وعوده، فإذا وصل الحضرة الخليفية أعاده إلى ساق موزته"... كما عرف بشدة حبه للعلماء، فقد كان راعيًا لهم؛ إذ يحضر داره فصحاء العرب وعلماء الكوفة والبصرة الذين كانت له مواقف معهم تدل على سمو منزلته من العلم، الأمر الذي دعا الكثير من الكتّاب المرموقين في ذلك العصر، أن يؤلفوا الكتب ويجعلوا إهداءها إليه.

وكذلك الشأن بمكتبة دار العلم التي أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن ظهر في الموصل وجعل فيها وقفًا على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب العلم والأدب وكان معسرًا أعطاه كتبًا ونقودًا... وأيضًا خزانة الوزير مؤيد الدين بن القصاب الذي نشأ مشتغلاً بالعلم والأدب، وقد قادته محبته للعلم والأدب إلى إنشاء خزانة للكتب أوقف على طلاب العلم الكثير منها، وكتب نص الوقفية بخطه... هذا إلى جانب العديد من المكتبات الأخرى التي كان لها أيدٍ بيضاء على مسيرة العلم في ذلك الزمان، وكان من ثمارها الطيبة تقريب العلم من نفوس محبيه، وكان لها أيضًا أثرها الحضاري الرائع في الحث على الاستزادة من العلوم وبث المعارف بين الناس.

مكتبة بيت الحكمة بالقاهرة

لقد أنشئت هذه الدار في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي عام ٣٩٥ للهجرة، ويقول المؤرخ الكبير أحمد بن علي المقريزي حول إنشاء هذه الدار: "إن الحاكم بأمر الله نقل إليها من كتب قصره وخزائن القصور المهجورة، ما يقدر بستمائة ألف مجلد منها مائة ألف مجلد بديعة الخط والتجليد". وزاد المقريزي: "لقد أعطى الحاكم بأمر الله جل اهتمامه، لبناء هذه الدار وكان له فيها مكان خاص، وقد فرشت المكتبة كأحسن ما يكون من الفرش، وعني بفرشها وزخرفتها وزين أبوابها وحجراتها بأنفس الستائر، وكسيت أرضيتها بالبسط والطنافس وزينت الجدران بخرائط فماشية عليها أقاليم الأرض، وعين لها القوم والخدم، وكان عدد الجزأين فيها أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر ألف كتاب، وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع، ويستطيع الراغب أن يحصل على الكتاب الذي يريده بنفسه ما تيسر له ذلك، فإذا ضل الطريق استعان بأحد المناولين". كما كانت دار الحكمة مقسمة إلى عدة أقسام؛ فقسم للفقهاء، وقسم لقراء القرآن الكريم، وقسم للفلكيين، وقسم لأصحاب النحو واللغة، وقسم للأطباء، إلى جانب عدة قاعات للمحاضرات والمناقشات والمناظرات، حيث كان الحاكم بأمر الله يحضر كثيرًا من هذه المناظرات في الدار... كما رتب الحاكم للمقيمين بالمكتبة والباحثين أيًّا كان مجال اهتمامهم وأيًّا كانت جنسياتهم، مكافأة شهرية عرفت بـ"الجوائز السنية" تدفع لهم من خزانة بيت مال المسلمين وليس من مال الوقف... كما أباح الحضور إلى دار الحكمة لجميع الراغبين على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم لتلقي الدروس والقراءة والنسخ والنقل والاستعارة، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه... كما كان بها مكان للإقامة والضيافة لمن

يرتحلون إليها مسافات بعيدة. وظلت دار الحكمة بفضل أساتذتها المشهورين وما كان لها من مناهج متنوعة جمعت بين الدراسة العلمية والفقهية، تؤدي رسالتها العلمية حتى نشبت الحرب الداخلية في عهد المستنصر بالله، وكان ذلك بداية المحنة التي نكبت بها الدار وسائر المكتبات الأخرى في ذلك العهد؛ "حيث فقدت المكتبة أعدادًا هائلة من الكتب والمصادر الثمينة من المخطوطات النادرة، حيث كان بها ٦٥٠٠ مخطوطة في الرياضيات، و١٨٠٠٠ في الفلسفة، وكان فيها نسخ متعددة من العمل الواحد منها ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري و١٨٠٠ نسخة للخليل بن أحمد الفراهيدي من بينها نسخة بخط الخليل نفسه، وكانت الخسارة العلمية أكبر من أن تعوض إذا استولى الجند والأمراء على نفائس الكتب، كما تفرقت أكبر محتوياتها".

كانت المكتبات في الحضارة الإسلامية، منارات وجامعات لنشر العلم والثقافة؛ يجلس فيها القراء والفقهاء واللغويون والأطباء والفلاسفة في مكان واحد، يحملون هدفًا واحدًا هو نشر العلم والثقافة، في جو ساده التسامح والحوار البنّاء وحرية البحث العلمي.

مكتبات الأندلس

لقد قامت في قرطبة في عهدي الخليفتين عبد الرحمن الناصر الأموي وابنه المستنصر نهضة ثقافية كبرى، وظهر ذلك جليًا باهتمامهم بإنشاء المكتبات التي بلغت في عظمتها وتأثيرها الثقافي، أشهر مكتبات ذلك العصر في بغداد والإسكندرية والقيروان. وقد حظيت هذه المكتبة، برعاية ودعم الخلفاء والأمراء من بني أمية، حيث كانوا يشجعون العلماء والأدباء وأرباب الفكر في أي مكان ويغدقون عليهم العطايا والهبات، حتى تم لهم استقطاب كل حركة علمية وفكرية بزغت في أي بلد من البلدان بتشجيع أهلها بالهجرة إلى الأندلس، حتى غدت قرطبة -خلال هذه الفترة- مهرجانًا علميًا وصرحًا ثقافيًا كبيرًا يموج بالعلماء والأدباء والمفكرين في شتى المجالات.

وقد أشار ابن سعيد إلى أن مكتبة كبرى للأمويين أسست في قرطبة في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط، وقد زودها بكتب كثيرة اشتراها من المشرق الإسلامي، وعلى ما يبدو أن هذه المكتبة كانت النواة الأولى لمكتبة الخلافة الأموية في قرطبة التي تألقت في القرن الرابع الهجري، حيث أَولى الخليفة الناصر وابنه الحكم جل اهتمامهما وعظيم رعايتهما لها... فإن شغفهما الكبير بجمع الكتب قد بلغ الآفاق ووصل إلى مسامع الناس في كل مكان... فها هو الإمبراطور قسطنطين السابع حاكم بيزنطة، لم يجد شيئًا يتقرب به إلى قلب الناصر حينما عزم على عقد معاهدة معه سوى أن يهديه كتابًا جديدًا لم يعرف من قبل وهو كتاب "ديوسفوريدس" في الطب، وجاءت رسله إلى قرطبة تحمل ذلك الكتاب في مجلد جميل مكتوبًا باللغة الإغريقية، وقد ذهّبت حروفه وزينت صفحاته بالرسوم الجميلة لبعض النباتات والأشجار التي ورد ذكرها في الكتاب... ولم يكتف إمبراطور بيزنطة بذلك، بل قد أرسل بعد ذلك "نقولا" الراهب ليقوم بترجمته من اللغة الإغريقية إلى اللغة العربية. وإذا كان هذا هو الشأن بالنسبة للناصر، فإن ابنه الحكم لم يكن أقل منه شأنًا من حيث حرصه على جمع الكتب واقتناء النفيس منها قبل أن تظهر أو تشيع في مواطنها؛ فكان يبعث في الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويرسل إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه... وعندما بلغ إليه أن أبا الفرج الأصفهاني قد أوشك أن ينتهي من تأليف كتابه "الأغاني"، بعث إليه ألف دينار من الذهب وحصل منه على نسخة مبكرة من ذلك الكتاب قبل أن يشيع في العراق.

ومن الطريف أن هواية جمع الكتب واقتنائها في مكتبات وخزانات لحفظها، لم تكن وقفًا على الأمراء الأمويين فقط على نحو ما رأينا، وإنما كانت هواية تأصلت أيضًا في نفس الشعب الأندلسي، حتى صارت عندهم من علامات الرفعة والسمو، لا يستغني الرجل منهم عن تأسيس مكتبة في بيته حتى وإن لم يكن مولعًا بالقراءة وحب المعرفة...

ومما يؤكد هذا الرأي هذه الحكاية الطريفة التي رواها "المقري" عن "الحضرمي" الذي غشي سوقًا للكتب في قرطبة لشراء أحد الكتب، قال "الحضرمي": "أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقّب فيه وقوع كتاب لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح، ففرحت

به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلى المنادي بالزيادة إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرني من يريد هذا الكتاب حتى أبلغه إلى ما يساوي، فأراني شخصًا عليه لباس رئاسة، فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال إليّ: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يساوي هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أريد فيه، والحمد لله على ما أنعم علي به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يعطي الجوز لمن لا أسنان له، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه".

وظلت هواية جمع الكتب وحب اقتنائها باقية في نفوس الشعب الأندلسي حتى بعد انتهاء عصر خلافة بني أمية وزوال مكتبتهم في قرطبة، حيث أخذ ملوك الطوائف يقلدون الخلفاء الأمويين في تعلقهم بالعلم، وتشجيع العلماء، وجمع الكتب النادرة، وإقامة المكتبات الخاصة التي تليق بجلال القدر وأبهة الحكم في أشبلية وطليطلة وسرقسطة وبلنسية... حتى تعددت المكتبات الكبرى بتعدد الدويلات التي أقامها ملوك الطوائف، إذ حوت خزائنهم الآلاف من المجلدات والمخطوطات النادرة في شتى فروع العلم والمعرفة، وبالتالي كثر هواة جمع الكتب وراجت تجارة الوراقة، وظلت هذه الهواية متمكنة في نفوس الناس بالأندلس طوال حكم المسلمين بها، إلى أن استولى الملك "فرناندو" على غرناطة آخر معقل إسلامي في الأندلس، حيث أصدر أمره بجمع المخطوطات الإسلامية من أيدي المسلمين، وتم إحراقها في ميدان الرملة في غرناطة على مشهد ومرأى من الجماهير، ولم يصل إلينا منها سوى مخطوط واحد وَضع عليه الحكم الثاني ملاحظات بخط يده.

مكتبات القيروان

كما أنشئت في مدينة القيروان المكتبات العامة والمكتبات الملحقة بالمساجد والمدارس والزوايا، وكانت هذه المكتبات مفتوحة للدراسين وتضم أمهات الكتب... ومن أشهر هذه المكتبات التي كانت موجودة في القيروان، بيت الحكمة الذي أنشأه الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي، والذي أراد به أن يضاهي بيت الحكمة في بغداد، إذ كان هذا البيت نواة لمدرسة الطب القيروانية التي أثرت في الحركة العلمية في المغرب لزمن طويل... وقد استقدم الأمير إبراهيم أعدادًا كبيرة من علماء الفلك والطب والهندسة والنبات والرياضيات من المشرق إلى المغرب وزود منهم الفلكيين بالآلات الفلكية، حيث كان يبعث كل عام –وأحيانًا كل ستة أشهر– بعثة إلى بغداد بهدف تجديد ولائه للخلافة العباسية واقتناء نفائس الكتب المشرقية في الحكمة والفلك مما لا نظير له في المغرب. واستقدام مشاهير العلماء في العراق ومصر على هذا النحو، أمكنه في أمد قصير أن يقيم نموذجًا مصغرًا من بيت الحكمة في بغداد، حيث جعل منها معهدًا علميًّا للدرس والبحث العلمي والترجمة من اللاتينية، ومركزًا لنسخ المصنفات كان يتولى الإشراف عليه حفظة؛ مهمتهم السهر على حراسة ما يحتويه من كتب وتزويد الباحثين والمترددين عليه من طلاب العلم بما يلزمهم من هذه الكتب حسب تخصصاتهم، ويرأس هؤلاء الحفظة، ناظر كان يُعرف بصاحب بيت الحكمة... وأول من تولى هذا المنصب عالم الرياضيات أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني الكاتب المعروف بأبي اليسر الرياضي، وهو بغدادي النشأة، حيث أتيح له أن يلتقي بالعديد من المحدثين والفقهاء والأدباء واللغويين، وكان قد تنقّل في أقطار المشرق قبل انتقاله إلى الأندلس وأخيرًا استقر بالقيروان... كما كان الأمير إبراهيم بن أحمد، يعقد المجالس العلمية للمناظرة في بيت الحكمة، وكان يحضر هذه المجالس العلماء البارزون من فقهاء المالكية والحنفية.

وفي النهاية نقول، يجب علينا التأكيد على أن العودة لدراسة التراث الفكري والعلمي للحضارة العربية الإسلامية، لا يعني رفض التجديد والتغني بأمجاد الماضي، بل العكس هو الصحيح... فكل حركة بعث أو تجديد حقيقية، تبدأ بالعودة لهذا التراث لنستلهم قيمه ونستخرج جواهره وكنوزه... ومن ثم يمكن القول، إن كل فكر قادر على التغيير هو فكر يبدأ بقراءة معاصرة للتراث، فدراسة التراث هي دراسة لبناء الحاضر واستشراف المستقبل، وعلى هذا يتعين علينا الاهتمام بدراسة تراثنا المكتبي وتأصيله كي نعرف ماضينا الذي نهتدي من خلاله لمستقبلنا. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

أ.د. عرفان يلماز*



الصقر
ملك الطيور

مرحبًا أيها الإنسـان! أنـا الصقـر.. أقف بين يديـك بفخـري واعتزازي ومكانتـي المتميزة بيـن الجـوارح، حيـث أُعتبَـر أقـوى طير في السماء، ولعل هذا ما يجعلني سيدًا للجوارح. كنت منذ القدم -ولا أزال- موضـعَ إعجاب الجميع بأجنحتي القوية الباهرة، ومخالبـي المـزودة بالأظفـار الحـادة، ومنقـاري المعقـوف، ووقفتـي المهيبـة.. فقد نُسـجتْ حولي الأسـاطير، وصُوّرت عنـي الأفلام، واسـتُعملت صورتي في بيـارق القوى الجوية، وبعض فرق كرة القدم، وكثير من الشعارات المختلفة.

مكانتي بين المخلوقات

ننقسـم نحن الصقور، إلى (٧٥) جنسًـا و(٣٠٠) نوع، ونتوزع إلـى فصيلتيـن كبيرتيـن وأخـرى صغيرتيـن فـي الحجـم: "Sagittariidae" و"Cathartidae" و"Accipitridae" و"Falconidae". تمثـل الــ"Falconiformes" النوع الأكبر حجمًا والأشـد قوة بين الطيـور النهارية الجارحة. والرَّخَمَة والصقر والباز والشـاهين والحَدَأَة وغيرها من الجوارح الأكبر حجمًا، والأشـد قوة من سـابقتها تنتمي إلى عائلة الــ"Accipitridae". نختلف عن بعضنا في حجم الأجنحة وشكل الطيران.

الأجناس الـ(٢٠) والأنواع الـ(٧٥) التي تنتمي إلى الفصيلة

الصقرية، ليست جميعها صقورًا حقيقية. ويمكن تصنيفنا إلى أربعة أصنافٍ أساسية تبعًا للحجم وأنماط التغذية والطيران. فهناك الصقور التي تعيش على الحيات (العُقبان)، وصقور البحار، وصقور الغابات.

كما أن الصقور الحقيقية، تتمايز فيما بينها بسيقانها ومناقيرها ومؤخرة أرياشها.

خصائصنا وأنماط طيراننا

لا تحمل حناجرنا حبالاً صوتية كما في الطيور المغرِّدة، ولذلك نعتمد في التصويت على ضغط الهواء في فراغ الحجرة الكروية فيها. يحمل الجزء القريب من قاعدة المنقار قسمًا شمعيًّا صلبًا برّاقًا في الغالب تستقر فيه فتحتا أنوفنا.

وعظامُنا المجوَّفة تساعدنا على الطيران كما الحال عند سائر الطيور.

نصطاد في النهار، فالهواء الذي يتصاعد نحو الأعلى مع ارتفاع درجة حرارته، يوفر لنا الطاقة ويسهِّل علينا ركوب الجو والارتقاء إلى العلياء، لننقضَّ بعد ذلك من علوّنا على الصيد -بمجرد تمييزه- في خفة وسرعة.

نعتني جيدًا بوَبَرنا وريشنا ونحافظ عليها حتى تبقى نظيفة، وذلك لألا نتعرض لمشاكل أثناء الطيران أو الصيد، حيث نطير بسرعة تتراوح ما بين (١٢٠-١٣٠ كم) في الساعة. فنظافة الريش والعناية بها ضروريةٌ لوقايتها من تأثيرات الماء والهواء، لذلك خلَق لنا صاحب الرحمة المطلقة في ذيولنا، قطعةً دهنيةً تعمل على فرز الدهون، فنأخذها بمناقيرنا وندهن بها سائر أرياشنا.

الصقور الحقيقية التي تتميز بوفرة الوبر في سيقانها، تتوزع إلى ٣٣ نوعًا. وينحدر أكبرنا حجمًا من سلالة (Aquila). وقد تبلغ المسافة بين طرفي جناح صقر الصخور (Aquila Chrysaetos) عند الانقضاض، (٢٢٠ سم)، كما يتراوح طول جناحه الواحد من (٧٥ سم) إلى (٨٨ سم). هذا وقد تبلغ فتحة الجناح عند ملك الصقور (Aquila Heliaca) (٢١٠ سم)، وعند صقر السهول (Aquila Nipalensis) (٢٦٠ سم).

لدينا قدرة عالية على المناورة التي لا تملكها أحدث أنظمتكم الحربية من الطائرات، حيث تؤمّن لنا هذه المناورة ضبط السرعة حتى لا نرتطم بالصخور أثناء الانقضاض، وتساعدنا على الفرملة التي تؤمّن الإمساك بالصيد حيًّا، وبالتالي الانتقال إلى الارتفاع والطيران من جديد.

تعلمون أن ما سبق كله من السمات والخصائص، لم يكن بعلمي ولا تدبيري، ولا يمكن أن يبلغه عقلي ولا تفكيري.. فالحيوانات تتصرف في الحياة بتقدير إلهي، فتعرف به كيف تسعى نحو أرزاقها، وكيف تنالها، وكيف تعالج نفسها من أمراض تصيبها، وكيف تتكيف مع شروط الحياة المتقلبة إليها.

إن أسماء الله الحسنى تتجلى فينا باسمه الرزاق وبه نؤمِّن غذاءنا.. وتتجلى باسمه المدبِّر فيكون به نمونا، ويكون به الانسجام في وَبَرنا وأرياشنا وأجنحتنا وعضلاتنا وقفصنا الصدري.. فسبحان الخلاق العظيم!

أقسام الصقور وبيئاتها

تضم الصقور البحرية عشرة أنواع أشهرها الصقور الكبير الذي تتخذه الولايات المتحدة الأمريكية برأسه الأبيض شعارًا قوميًّا لها. يبدأ هذا الصقر حياته برأسٍ قاتم يميل لونه إلى الفاتح تدريجيًّا حتى يبْيَضَّ تمامًا، وذلك عندما يبلغ الثالثة من عمره.

يبني هذا الصقر عشَّه بين الصخور المرتفعة، كما أنه يتميز بمنقاره الضخم الكبير المعقوف، وأصابع القدمين ذات النتوءات؛ يستطيع بها الإمساك بالأسماك والفرائس الزَّلِقة. فهو يطارد الحيوانات الحية أحيانًا ويصطاد الأسماك على الرغم من أنه يتغذى على الجِيَف، وربما يغتصب الأسماك التي يصطادُها، منافسوه من صقور الأسماك (Pandion Haliaetus)، يتراوح طوله بين (٧٩-٩٤ سم)، وتبلغ فتحة جناحيه (٢٣٠ سم). تخضع الصقور البحرية ذوات الرؤوس الرمادية للحماية في أمريكا، وتكاد تنقرض في آسيا.

تنقسم صقور الحيات والزواحف إلى نحو ١٦ نوعًا، وتتميز بسيقان قصيرة جرداء ذات حراشف مصمَّمة من أجل الإمساك بالحيات واصطيادها... يخرج الذكر للصيد، وعندما يمسك بالفريسة، يقتلها ويمضي بها إلى عشّه ليطعم أنثاه وفراخه. لقد هيئ هذا الصقر من "الناحية التشريحية" لصيد الحيات وهو مَحْميٌّ من سمومها... فقد تجلَّى ربنا بعلمه المحيط واسمه المصوِّر واسمه المدبِّر على هذا الصقر فغطى ساقيه بحراشف سميكة وقوية تقيهما من عضات الحيات وسمومها!

وقد يبني صقر الحياة عشَّه على الأشجار الضخمة الكبيرة

أو الصخور العالية. تصل أطوالها إلى (٦٣-٦٤ سم)، وتبلغ فتحة جناحيها (١٩٠ سم).

تعيش صقور الغابات في وسط وجنوب القارة الأمريكية، وتبلغ من الحجم ما تستحق به دخول كتاب الأرقام القياسية؛ فإذا كان وزنها في المتوسط يبلغ (٤,٥ كغ)، فوُجد -في حديقة الحيوانات في أمريكا- أنثى من هذه الفصيلة بلغ وزنها (١٢,٣ كغ). كما يبلغ متوسط وزن الكبار منها (٩ كغ)، إذ تستطيع أن تصطاد بسهولة قردًا يزن (٩ كغ)... فرفاقنا من هذه الفصيلة لا تُتعب نفسها باصطياد الحيوانات الصغيرة التي يقل وزنها عن (٥ كغ).

حِدَّةُ البصر الخارقة

جميع الأصابع تشير إلينا عندما يُطرح السؤال عن أكثر الأبصار حدَّةً بين الحيوانات. فصقور الصخور -على سبيل المثال- يميز حركة الأرنب على مسافة (٢ كم)، فيهوي نحوه في سرعة فائقة وينقض عليه.

أوليست هذه نعمة عظمى مُنحت إلينا؟ وإلا كيف لنا أن نصطاد ونؤمِّن قُوتنا وطعامنا؟! فبهذه النعمة من قوة الإبصار فقط، يمكن أن تتكامل عظمة الصنعة الإلهية في مخالبنا وأجنحتنا ومناقيرنا وعضلاتنا وقدرتنا على المناورة والطيران.

وقد وهبني خالقي -إضافة إلى الجفون- غشاءً رقيقًا ليحمي عيني من الأضرار، حيث يتقدم ويتأخر هذا الغشاء دون أن يعيق الرؤية والبصر. وتحمل عيناي طاقَةً جبارةً تشبه طاقة التنويم المغناطيسي، فنظرةٌ واحدةٌ مني لعينَي الفريسة تجعلها في حالة تشبه الشلل.

وعلى الرغم من أن قوة بصري تبلغ ثمانية أضعاف أبصاركم؛ فإن وزن دماغي يبقى صغيرًا أمام دماغكم، ولو كانت وظيفة الإبصار متعلقة بحجم الدماغ، لكانت عيونكم أقوى على الإبصار من عينَي؛ لأن أدمغتكم تشكِّل (٢-٢,٥٪) من أجسامكم، في الوقت الذي يشكِّل فيه دماغي (٠,٦٪) من جسمي، وهذا يعني أن الدماغ لا يعدو كونه ستارًا فقط لقدرة العيون. وإن الله الواحد الأحد، هو فقط صاحب القدرة الحقيقية والعظمة الكاملة، فسبحان من أحسن كل شيء خَلَقَه.

يعيش ذَكَر الصقور مدى الحياة مع أنثى واحدة فقط، وهذا أمرٌ مشتركٌ بين الصقور... يواصل معيشته في عشّ واحد، إذ يبنيه في مكان مرتفع يصعب الوصول إليه، ويعتني بأنثاه في وقت التفريخ، حيث يسعى إلى تلبية حوائجها حرصًا منه على الفراخ؛ فيخرج كل يومٍ إلى الصيد ليؤمِّن الغذاء لنفسه ولأنثاه المهيأة للأمومة.

تختلف فترات التكاثر والنمو من نوع لآخر بين الصقور، وتتراوح بيوض الإناث من بيضة إلى سبع بيضات في العام الواحد تبعًا لحجمها وضخامتها. وقد تنام الأنثى على البيوض من ٢٨ إلى ٦٠ يومًا، وتختلف فترات بقائها قريبًا من العشّ من أسابيع إلى عامين.

نبني أعشاشنا بما يناسب أحجامنا، فقد عُثر على عشٍّ لصقر أبيض الرأس من صقور البحار أمضى فيه خمسة وأربعين عامًا بوزن ثلاثة أطنانٍ، وقطره (٢,٩) مترًا، في عمق ستة أمتار. تبيض أنثى هذا النوع من (١-٣) بيضات، وتحضن البيض ٣٥ يومًا. هذا وقد تفقس البيوض عن الفراخ في هذا النوع مفتَّحة العيون، تعتني بها الأمّات حتى تبلغ الفراخ سن البلوغ. فالذكور تأتي بالفرائس التي تصطادها، وتقوم الأمّات بتقطيعها بمناقيرها لتُطعم الصغار. كما يتمكن الصغار من الاعتماد على أنفسها والطيران خلال (١٢-١٣) أسبوعًا، لكنها لا تبتعد عن أعشاشها وتبقى علاقتها بالأسرة قائمة حتى تتجاوز العام الأول من أعمارها.

لا تحسبوا أن كل ذلك بتخطيطٍ وتدبيرٍ منَّا، بل هو سَوْقٌ وتدبيرٌ وتقديرٌ إلهي يسَّر لنا به أرزاقنا وحياتنا... فسبحان العليم الخبير.

بعض الشائعات التي تدور حولنا

كثيرة هي الشائعات التي تدور حولنا؛ فبعضها صحيحة وبعضها الآخر مبالَغ فيها. ففي السويد يقال -مثلاً- بأن صقرًا أبيض الرأس من صقور البحار خطف صغيرًا من الوعول يبلغ وزنه (٦٨٠٠) غرامًا.

وفي النرويج يقال بأن صقرًا أبيض الذيل (Haliaeetus Albicilla) خطف بنتًا تبلغ من العمر أربعة أعوام من بين أهلها، وابتعد بها (١٦٠٠) متر، وقد تم إنقاذها قبل أن ينال منها الصقر أو قبل أن يصيبها بأذى.

بعض أنواعنا -وفي مقدمتها صقور الجبال- تصطاد الخرفان وتأكلها، وأنتم -بنو البشر- السبب في ذلك؛ لأنكم أفسدتم الطبيعة وغزوتم الغابات، وبالغتم في الصيد الجائر... فلم يبق لنا سوى أن نصطاد كل ما نجده أمامنا.

والصقر المحارب (Polemaetus Bellicosus) الذي يعيش في إفريقيا، يبلـغ من القـوة أن يتمكن من اصطياد صغـار الظباء وبنات آوى، لكنه لا يصطاد سوى "Hyrax".

أحـب هنا أن أتحدث قليلاً عن نعمـة الطب الوقائي التي ألهمنا بهـا خالقنـا اللطيـف الخبيـر؛ فنحـن نَفْـرِش النباتات العطرية في محيط أعشاشـنا لطرد الطفيليات والحشرات عن أعشاشنا والدفاع عن بيوضنا.

ربمـا يبلغ متوسـط عمر الصقـر في الطبيعـة ثلاثين عامًا، أو يبلـغ ثمانيـن عامًـا في حدائـق الحيوانـات، ولكني أفضل العيـش ثلاثين عامًـا وأنا حرٌّ، على العيش ثمانين عامًا أسـيرًا في أقفاص حدائق الحيوانات.

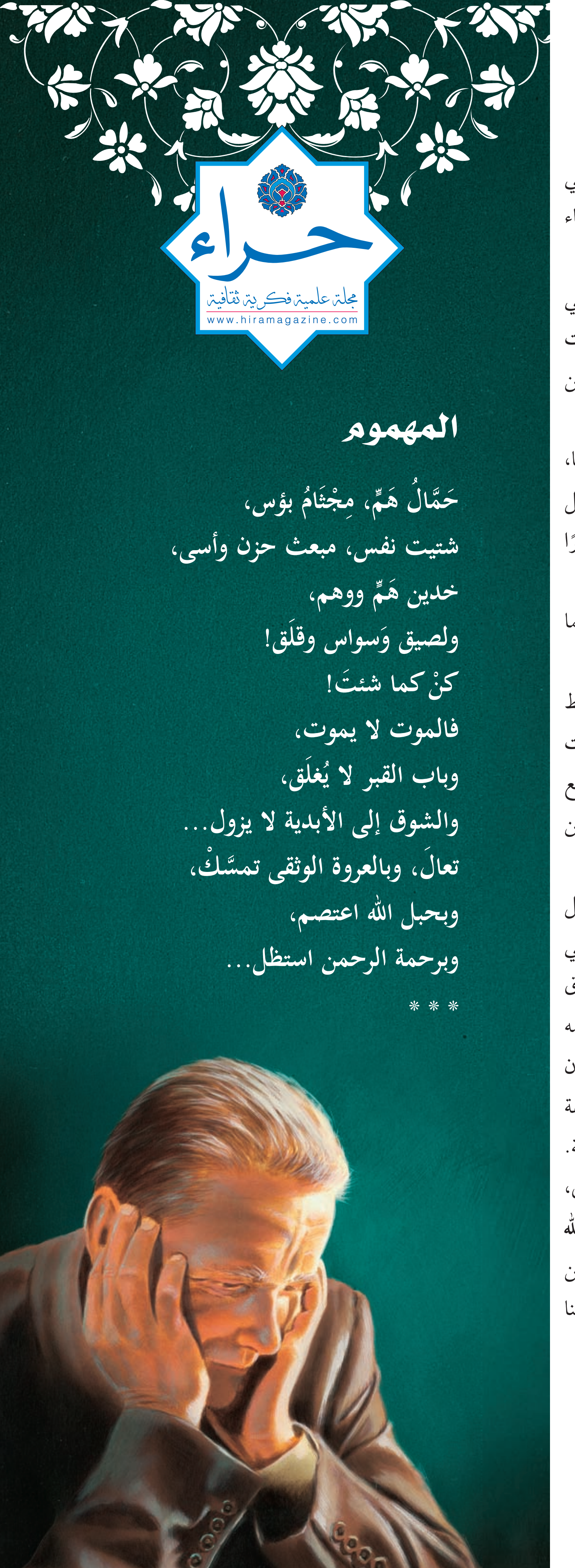
يتناسب سن البلوغ في الصقور طردًا مع أحجامها، فكلما كان الصقر كبيرًا في حجمه كلما تأخر بلوغه.

وأنشـطة التكاثر وأعداد البيوض، وأمكنة الأعشاش ترتبط بأعدادنـا ومقـدار توفـر الغـذاء فـي محيطنا. فالصقـور ذات الأحجـام الصغيـرة تتكاثر بأعداد كبيرة نسـبيًّا، لأنها تسـتطيع أن تجـد الكثير من الحيوانات الصغيرة التي تصطادها، ولكن الصقور الكبيرة تتكاثر بأعدادٍ أقلّ، لأنها تجد غذاء أقلّ.

لقد تجلى ربنا باسمه الرزاق، فهيأ لنا أرزاقنا، كما هيأ لكل مخلوق رزقه، وتجلى باسمه المُقْسِط فجعل الرزق مناسبًا في غيـر زيادة ولا نقصان، وتجلى باسـمه المدبّر فجعل الأرزاق مرتبـة بعضهـا من بعض في تكامـل بديع، كما تجلى باسـمه القـدوس وجعلنا مع مخلوقات أخـرى نعمل من أجل توازن الطبيعـة ونظافتهـا، من خـلال اصطيـاد الحيوانـات الضعيفة والمريضة، فنساهم بذلك في التوازن العددي للكائنات الحية.

حاولت هنا وأنا أتحدث عن نفسي وعن الصقور الأخرى، أن أتوجـه مـن الصنعة إلـى الصانع، وأتحدث عن أسـماء الله ﷻ، متمنيًا ألا ننسـى جميعًا أننـا محاطون بالنعم الكبرى من ألطـاف الله وقدرته العالمة الخبيرة، فهل شـكرنا نعم الله علينا وعبدناه حق عبادته؟! ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.



أ.د. أحمد عبادي*



بين يدي كتاب
ونحن نبني حضارتنا

بِناء حضارة! لا شك أنه بناء ليس كمثله كل بناء! ضخامةً، وتركيبًا، واتّساعًا، وشمولاً، واستيعابًا، وامتدادًا، وأهمّية وخطورة.

فالحضارة، تشيؤ وظيفي يتم عبر الزمن، لعناصر التراب، بفعل الناس، ووفق النُّظم التي يتواضع عليها الناس... والحضارة، شهودٌ ينتسج بحوار الإنسان -فردًا واجتماعًا- مع مرجعيته، ليستخلص منها قبلته ووجهاته إليها... والحضارة، شهودٌ ينصاغ بجهد الإنسان وبحواره مع الكون، ليمتح منه قدرته على الفعل والتسخير، كل بحسب سهمه في الأيدي والأبصار.

ومن هنا، فإن نون النسبة في "حضارتنا"، التي بها ألحق الأستاذ الجليل فتح الله كولن الحضارة بأناسها المعنيين، بـ"نا"... هذه النون، جاءت بائحة بكل ما سلف، وأشجانًا.

بناء حضارة! وفق أي مثال؟ وبأي نفس؟ وبأي مناهج؟ وبأي أناس؟ وبأي تمكين؟ ووفق أي تشريع؟ وبأي تنظيم؟ وبأي نكهة؟ هذه كلها أسئلة أطّرت بجلاء، بل بنتوء هذا القول الثقيل المكنون في هذا السفر المُغني عن جملة الأسفار في بابه، وعن رَهقة الأسفار دون لُبابه.

إنه لم ينبر -عبر تاريخ أمتنا- للكدح في هذا الورش اللاحب إلا أحد خمسة: قوي عالم راشد مأذون أمين، أو ناصِحٌ عارف محبّ حكيم، أو جندي مخلص صادق مكين، أو انتهازي عتلٍّ بعد ذلك زنيم، أو رويبضة،[1] والرويبضة أدهى وأمرّ.

والأستاذ فتح الله كولن هو كل الثلاثة الأوائل الأصفياء، وهو ممّا دون ذلك منزّه براء، فقد خصه الجليل ﷻ بخصال

من الفضل ليس من أقلّها إكرامه جل وعز إيّاه، بذوق ثمرات البذل، والكدح، والمكابدة، في خاصة نفسه، وفي محيطه، حيث تدرّج -حفظه الله- عبر مدارج بناء الذات مقامًا مقامًا، ومهارة مهارة، وخُلقًا خلقًا، ومعلومة معلومة، على عين الله سبحانه، فكان من المصطنعين: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، ثم تيمّم -حفظه الله- شطر الفلاح مُتَسَرْبلاً بطُهر الصلاح، ومشمّرًا دون لواء الرّباح، لا يثنيه عن ذلك شيء، أخذًا من مشكاة قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾(الشمس:٩).

ثم اتّبع سببًا... فأكنَّ وَقْدة حُبّ الله في فؤاده فأضحى ناشدًا محابّه لينيط بها، ووجد أن من أولى ما يناط به نفع عياله، مصداقًا لقوله ﷺ: "الخَلْق كلُّهم عِيالُ الله، فأحبُّ الخَلْق إلى الله أنفعهم لعياله".[٢]

ثم أتبع سببًا.... فرأى أن أحرى ما يُنفع به الإنسان، إعانته على استرداد كرامته، وأول مدارج الكرامة استعادة القدرة على قول "لا" للشهوات والنزوات والنزغات والرّغبات والرهبات والكبوات والعثرات والنعرات والفترات... فشدّ حيازيمه ولم يملك كل من لامسَتْه لوعة أخذ الكتاب بقوّة، إلا أن يفعل مثل ذلك فيجتاز المسالك أو يلزم المهالك!

ثم أتبع سببًا... فطفق في نقش المحاضن، وإعداد المساكن، وبث الجواشن،[٣] وصقل المحاسن، ورَفْع المآذن بدفع الهمّة وصوغ اللّمّة وجمع الأمة.

ثم أتبع سببًا... فانتقل إلى البوح بعد الكتم، وإلى التجلية بعد التحلية.

ثم أتبع سببًا... فانتقل إلى ترميم الجذور، وتلقيح البذور، ومدّ الجسور، وإشاعة البرور، مصطفًّا خلف المصطفى ﷺ، صافًّا كلّ من أقبل، وراء ناصية الربح، وداعي النُّجح، عليه الصلاة والسلام.

فجاء هذا الكتاب ممهدًا طريق الإيمان بالديان، واتباع العدنان، والإناطة بالأركان، وبناء الإنسان، وتطهير الوجدان وصقل الجنان، والسباحة في الأكوان، والاستغناء عن الترجمان، وتجاوز الأوثان، واستثمار الأزمان، وإقامة العمران، والشوق إلى الرحمان.

فجاء كتاب "ونحن نبني حضارتنا" بفضل الله، صالحًا لأن يسمّى "كيف نبني حضارتنا؟!"، لأن اليراعة التي خطّته، حرّكتها أنامل الخِرّيت ذي الخُبر، الذي جاءنا من الكتاب الهادي للّتِي هي أقْوم، وسنة نبِي الله الأكرم ﷺ، برسم المهيع اليَبَس الناهج وسط بحر الفتَن والغفلات المائج.



أ.د. أحمد عبادي

فكان هذا السفر النفيس، لتَضَمُّخِه بمسك كل هذه الخصال، بمثابة البُراق المنهاجي الذي يحمل طالبه على صهوة متنه، يطوي به المراحل، ويفكّ له المسائل، لانسياب حقائقه سلسبيلاً، حيث إنها وصف لما يُحَسُّ ويُشَاهَد، وليست استظهارًا لما حُفِظَ فيعاوَد.

وقد شرفتُ أيما تشريف بترشيحي لتقديم هذا العلق المبارك، وما أصْدق مقال الشاعر عن هذا المقام إذ قال:

قالوا يزورك فيصلٌ وتزوره***قلت المكارم لا تفارق منزله

إن زارني فبِفضله، أو زرتُه***فلِفضله، فالفضل في الحالَين له

أسأل الله ذا الجلال والإكرام والفضل والإنعام، أن يجزل مثوبة الأستاذ فتح الله كولن "هُوجا أفندي" بخير ما جزى به هاديًا، ناصحًا، حدوبًا، حريصًا، رؤوفًا، رحيمًا، عن أمّته.

آمين آمين، والحمد لله رب العالمين. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنها ستأتي على الناس سِنُونَ خَدَّاعَةٌ، يصـدَّق فيها الكاذبُ، ويكذَّب فيها الصادقُ، ويؤْتَمن فيها الخائنُ، ويُخوَّن فيها الأمينُ، وينْطِق فيها الرُّوَيْبِضَةُ"، قِيل: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ يا رسول الله؟ قَالَ: "السَّفِيهُ يتكلَّم في أمْر العامة" (مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم:٧٧١٣).

(٢) المعجم الكبير للطبراني، رقم الحديث:٩٨٩٧.

(٣) جمع جوشن، وهو كتاب الأدعية المعروف.

شعر

أديب إبراهيم الدباغ*

هدير الليالي

للعذابات مرصودات...
ليالينا الذاهبات الآيبات...
عاصفات هادرات جائحات...
للظلم والظلام حاملات...
راكضات مسرعات لاهثات...
بالدَّمع طافحات...
وبالدم سابحات...
ولخضرة الروح آكلات...
ولجنبات القلب مجدبات...
عقيمات... وللعقم ناشرات...
قاصفات راعدات...
مشعلات آهات...
ومذكيات زفرات...
عاصفاتِ موتٍ مثيرات...
وبحارَ دمعٍ مجريات...
وبدكناء الظلمةِ للأفق صابغات...
قلوبنا بأيديها معصورات...
وأرواحنا مقهورات مسحوقات...
وكأننا... من الأجداث سراعًا قمنا...

وببيض الأكفان تردَّينا...
نحمْلق... نحدق.. حيارى سكارى...
في بعضنا نمور ونموج...
أَيْنَما توجَّهنا صُدِدْنا...
لا نَعْتِبَ ولا نُسْتَعْتَبُ...
كأننا في جسد الأمم جَرَبٌ مُعْدٍ...
منه تَفِرُّ... وله تَسْتَقْذِر...
ضحكاتنا مريضة محمومة...
بسُمّ العذاب مسمومة...
لا أغوار في أرواحنا...
ولا أعماق في وجداننا...
ولا إبداع في أفكارنا...
دواخلنا... تصطفق أبوابها...
ملعبًا للريح صارت...
وعُشًّا للفراغ غدت...
وكأننا لا ذات لنا...
ولا عقيدةً أو تاريخًا...
ماذا جرى... وهذا كيف جرى...
أفيدوني –يا إخوتي– أفادكم الله..!

(*) كاتب وأديب عراقي.

أ.د. خالد الصمدي*

أرواح الأطفال ألواح، وقلوبهم صحائف، تحتضن ما يُكتَب عليها وما يُنقَش فيها، وهي كالمرايا تلتقط وتعكس... وكُلُّ أُمٍّ إنما هي المدرسة الأولى لأطفالها، فإذا صلحت صلح أبناؤها... وبالأبناء الصالحين تقوم الأمم وبهم تخلُد.

(الموازين)

* * *



مجلات الأطفال في العالم الإسلامي
من الورقية إلى الرقمية

تكاد تجمع الدراسات المتخصصة في الإعلام الموجه للطفل في العالم الإسلامي، على أن المبادرات في هذا المجال ضعيفةٌ مقارنةً مع المنتوج الغربي الوافد إلى الطفل المسلم بلغته الأصلية أو المترجم إلى العربية بحمولته الثقافية والقيمية، كما أن حضور روح الرسالة ومقاصدها التربوية الحضارية في هذه المبادرات على قلتها، يبدو ضعيفًا بالمقارنة مع ما يروج في السوق من أدبيات موجهة للطفل يطغى عليها طابع التجارة والإثارة، والتي لا تنظر إلى الحاجات الحقيقية للطفل بقدر ما تنظر إلى الربح المادي العاجل.

ولا زلنا في العالم الإسلامي نتطلع إلى إعلام حقيقي موجه للطفل مناسب لقيم مجتمعنا وحضارته، في وقت نعاني فيه من إغراق السوق بالمنتوج الغربي الموجه للطفل والقائم على ترسيخ قيم حب الذات وحب السيطرة والعنف والمغامرة والمواقف غير الواقعية وحضور سلطة الخيال، مما يؤثر سلبًا على نفسية الطفل وعقليته في ظرفية حرجة، تتشكل فيها مفاهيمه وتصوراته وقناعاته عن نفسه وعن محيطه ومجتمعه.

وقد عرف عالمنا الإسلامي تجارب عديدة في الإنتاج الإعلامي الموجه للطفل تراوحت ما بين التجارب الفردية

والجماعية، والتجارب الأهلية والرسمية، استمر منها ما استمر وتساقط منها في الطريق الإعلامية المحفوفة بالمكاره ما تساقط. وتحتاج هذه التجارب التي غطت ما يقرب من نصف قرن أو يزيد، إلى دراسات تقويمية علمية متأنية ترصد المكتسبات، وتنبه إلى مكامن الخلل والزلل، وترسم خارطة الطريق في زمن العولمة والتنافسية، وفي عالم يجد فيه الطفل نفسه أمام آلاف الخيارات الإعلامية الجذابة والمغرية؛ من فضائيات وألعاب فيديو رقمية ومواقع إلكترونية على شبكة الإنترنيت، يجد المقبلون على تجارب في إنتاج مجلة تربوية للأطفال يفكرون ألف مرة قبل الإقدام على ذلك، إلا أننا نؤكد أن سبل النجاح متوفرة، لكن شريطة الإلمام بالواقع وظروفه وشروطه، والاطلاع على المعايير العلمية والتربوية والفنية التي تتطلبها التجربة في عالم الوسائط المتعددة والتواصل عن بعد... وهو ما يسعى هذا المقال إلى الإسهام فيه بنصيب.

واقع الإعلام المكتوب الموجه للطفل في العالم العربي

في سياق رصد الدراسات والأبحاث التي تشخص واقع الإعلام المكتوب الموجه للطفل في العالم العربي والإسلامي، نسوق دراستين قيمتين، أولهما: الدراسة القيمة للدكتور مالك إبراهيم الأحمد في كتابه "نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال" الصادر ضمن سلسلة كتاب الأمة في العدد ٥٩ سنة ١٩٩٨، حيث بسط تاريخ تطور إصدار مجلات الأطفال في العالم العربي، وحدد أهم الإشكالات التي واجهت وتواجه هذه التجارب الإعلامية الموجهة للطفل في العالم العربي، مما حد من تأثيرها في توجيه الناشئة. ومن هذه الإشكالات والصعوبات التي عرضها:

• ارتفاع أسعارها في كثير من البلدان العربية قياسًا على قدرة الأطفال الشرائية.

• عدم قدرتها على منافسة المجلات الأجنبية خصوصًا في البلدان التي تسود فيها لغة أجنبية بقوة.

• ضعف التوزيع وقلة وجود هذه المجلات في المنافذ (محلات التوزيع).

• استخدامها اللهجة المحلية لبعض البلدان (حد من انتشارها).

• المستوى الفني المتدني خصوصًا في البلدان العربية الفقيرة.

• التعثر المستمر في الصدور. فيندر أن تجد مجلة عربية للأطفال تصدر بشكل منتظم منذ بدء صدورها، باستثناء المجلات التي تصدر عن مؤسسات رسمية؛ وزارة التعليم أو الإعلام فهي تصدر لفترات أطول.

• غياب المؤسسات المتخصصة بالأطفال، والتي تعنى بإصدار هذه المجلات من وجهة نظر تربوية.

• غياب المجلات الموجهة للأطفال في مرحلة ما قبل سن المدرسة أقل من سبع سنوات.

• الابتعاد عن البيئة المحيطة والأحداث العامة الجارية.

• غلبة طابع القصص المصورة على كافة مجلات الأطفال.

• اعتماد الكثير من المجلات على ترجمة القصص الأجنبية.

• غلبة العنصر التجاري على المجلات كما يظهر من مستوى المادة المقدمة.

• عدم صلاحيتها للاستخدام كوسيلة تعليمية داخل المدرسة.[١]

وثاني هذه الدراسات التشخيصية: الرسالة الجامعية التي تقدم بها الدكتور طارق البكري لجامعة الإمام الأوزاعي سنة ١٩٩٩ لنيل شهادة الدكتوراه في موضوع "مجلات الأطفال ودورها في بناء الشخصية الإسلامية"،[٢] خصص فيها مباحث في الفصل الثالث، لرصد واقع المجلات العربية الموجهة للأطفال في سياق المجلات العالمية، والتي عرض فيها أهم الصعوبات والإشكالات التي استعرضها الدكتور "إبراهيم الأحمد"، إلا أنه يرى أن الوضع ليس بهذه القتامة، وأن هناك محاولات جادة مستمرة قدمت الكثير لإعلام الطفل العربي رغم الإكراهات، حيث يقول: "ورغم اتفاقنا إلى حد بعيد مع هذه الملاحظات، إلا أنه من خلال متابعتنا المجلات العربية الصادرة في العالم العربي، وعدد من المجلات التي توقفت نجد أن هذه الملاحظات غير دقيقة تمامًا، فهناك مجلات تستفيد من أسلوب المسلسلات المصورة لوضع نصوص تراثية مناسبة وقصص قيمة عالية المستوى... ونرى أن كثيرًا من المجلات العربية اليوم، تستخدم هذا الأسلوب بطريقة عالية الجودة من حيث الشكل والمضمون، وهو أمر في غاية الإفادة ويؤدي دوره بشكل أسرع من القصص الرتيبة أو التوجيه المباشر".[٣]

وفي سياق التشخيص نظمت "المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة" (إيسيسكو) ندوة دولية في موضوع "قضايا

الطفل من منظور إسلامي"، بتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، في الفترة الممتدة من ٢٩ أكتوبر إلى فاتح نوفمبر ٢٠٠٢، ونشرت أعمالها في سنة ٢٠٠٦. وقد قدم عدد من الباحثين في هذه الندوة عروضًا متخصصة في قضايا الطفولة، ومنها البحوث المقدمة في المحور الخامس بعنوان "دور الإعلام في تنمية ثقافة الطفل من منظور إسلامي" وضمنها بحث للدكتور هادي نعمان الهيتي بعنوان "هل يحتاج الأطفال المسلمون في العالم إلى مجلة عالمية ثقافية"، حيث شخص واقع اتصال الأطفال المسلمين مقرًا بأن الطفل المسلم يشارك في هذه الحركية باعتباره مستقبلاً اتصاليًا، إلا أن ما يتاح له أقل بكثير مقارنة بالأطفال الآخرين في هذا العالم، كما أن من بين ما يتاح له لا يتوافق مع توجهات النمو الاجتماعي والنفسي، ودعا إلى بناء مشروع اتصالي يتيح لأطفال العالم الإسلامي التواصل فيما بينهم، في تجاوز لحدود الجغرافيا واللغات واستثمار لوحدة الدين والقيم، كما قدم إطارًا نظريًا محدد الغايات والأهداف لبناء المشروع.(٤)



الحاجة إلى تطوير الإعلام المكتوب الموجه للطفل

إن المتأمل في هذا الرصد المركّز لواقع الإعلام العربي الإسلامي الورقي الموجه للطفل، والمتأمل في التحديات الإعلامية والتواصلية التي تعرفها بداية الألفية الثالثة، يمكن أن يسجل الملاحظات الآتية:

١- لا توجد استرتيجية عربية إسلامية واضحة للإنتاج الإعلامي الموجه للطفل بدليل ظهور تجارب ثم اختفائها لأسباب متعددة.

٢- باستثناء بعض المنتوجات الإعلامية الموجهة للطفل والصادرة في نهاية القرن العشرين بالعراق ولبنان وسورية ومصر والمدعومة من طرف الدولة ودور النشر الكبرى، لا تكاد تجد أثرًا لما يصدر في البلدان الأخرى في سوق التوزيع في العالم العربي والإسلامي رغم أهميته وجدته، بالمقارنة مع ما يصل الطفل العربي من المنتوجات الغربية بما تتميز به من جاذبية وتسويق إعلامي إشهاري ضخم مرافق لكل منتوج استهلاكي موجه للطفل.

٣- في سياق العولمة والتنافسية والتطور الهائل في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، أضحى عامل الإثارة والحركة والصوت والصورة بديلاً عن الورق، ولم يعد الطفل اليوم في حاجة إلى أن يقصد مكتبة لشراء قصة قد تصدر بانتظام بعد أسبوع أو شهر أو سنة وقد لا تصدر، بل أصبح يضغط على أزرار البلايستايشن أو الحاسوب، ليشاهد آلاف القصص والحكايات المصورة والمتحركة، يتفاعل معها وتستجيب لاختياراته ورغباته، وتضع أمامه فرصًا متعددة ومختلفة للعب والتسلية.

٤- إذا ما علمنا أن كل وثيقة إعلامية تحمل رسالة، فإننا ندرك خطورة الكم الهائل من الرسائل الموجهة إلى الطفل بين ثنايا الألعاب الإلكترونية، مما يجعل الحاجة ماسة إلى التفكير في منتوج إلكتروني يستجيب لحاجات أطفالنا في العالم الإسلامي، ويحمل رسالة القيم والحضارة الإسلامية ويكون قادرًا على المنافسة.

٥- إذا ما علمنا أن الغاية الأساس من مجلات الأطفال تكمن في تزويدهم بقدرات ومهارات علمية وتربوية، فإننا نقر جدلاً بأن لهذه الوظيفة وجهين متكاملين؛ وجهًا إعلاميًا



وهـو الوسـيلة، ووجهًا تعليميًّا هو الغايـة... إلا أن التعلم من المجـلات يصنَّـف فـي خانـة التعلـم الذاتي اللاصفـي، وقد سـعيت إلـى تتبع الآثـار التـي تحدثهـا التكنولوجيـا الحديثة علـى تعلمات الأطفال فوقفت على فقرات دقيقة الصياغة في كتاب "ثورة الأنفوميديا"،(٥) وهذه الفقرات ضمن هذا الكتاب هـي بعنوان "علم أطفالك بحـق"، وحين أنهيت قراءة الكتاب أحسسـت -فعلاً- أن العالم عن طريـق الإنفوميديا يصاغ من جديـد. فالرجـل يتحدث عن الفصل الدراسـي التخيلي وعن مدارس بلا أسـوار، وعن بنية تعلمية جديدة ليست بالضرورة داخل الفصل وعن "مدارس" متعددة التخصصات. إذن هناك تغير مستقبلي في الجهاز المفاهيمي التقليدي المرتبط بقضايا التعليـم بـكل أنواعه، سـواء التعلـم الصفي أو التعلـم الذاتي اللاصفي، وكل ذلك ناتج عن ثورة الإنفوميديا. يقول "فرانك كيليش": "تتيح الكمبوتيرات المتصلة بشبكة الإنترنيت لجميع الأفراد والطلاب والأسر والمدرسين والمسؤولين الإداريين، أن يعيـدوا النظـر فـي طبيعة مصطلـح المدرسـة... فبدلاً من التفكيـر في أمر المـدارس، فإن تلك الأجهزة سـتدفعهم إلى التركيـز على عملية التعليم والتعلـم، فليس من الضروري أن تتـم عملية التعليم في المدارس. ويقـول: "منذ ظهور التعليم الرسـمي، ارتبط التعلم بشخص واحد ومكان واحد ألا وهما المـدرس والفصـل، بيـد أن الكمبيوترات المزودة بالوسـائط المتعددة والتي تعمل على شـبكات الإنترنيت، سـوف تعطينا فرصـة لإعـادة التفكيـر في ذلـك النموذج العتيـق الذي عفى عليه الزمن، ولن يقف تعامل الكمبيوترات الواعد مع القضايا والمسـائل التعليمية فقط، بل سيتعداه إلى القضايا الاجتماعية المرتبطـة بهـا"، ومنها الوسـائل التعلمية خارج المؤسسـات، ومنهـا المجلات العلمية والتعليمية والترفيهية والتي سـتنتقل بالتدريج من الورقية إلى الرقمية.

إن هـذه الاسـتنتاجات هـي التـي تجعـل الحاجـة ماسـة لإنتـاج مجلات تربوية إلكترونية تفاعلية موجهة للطفل، ذات خصائـص فنية وعلمية وتربوية محـددة ومميزة، تحافظ على المكتسـبات التي حققتها المجلات الورقيـة، وتتجاوز بعض صعوباتها وإشـكالاتها العلمية والتربوية والفنية، وتعمل على الاسـتفادة مـن الإمكانـات التقنية التـي توفرهـا التكنولوجيا الحديثة، من أجل تحقيق أعلى درجة من التفاعل لدى الطفل مـع محتوياتها العلمية والتربوية والفنية، لما يشـكل ذلك من تأثيـر وتوجيـه إيجابي لمفاهيمـه وتصوراته وممارسـاته وفق قيمه الثقافية والحضارية.

استثمار التكنولوجيا الرقمية

إن بيـان الحاجـة الملحة إلى اسـتثمار التكنولوجيـا في إنتاج المجلـة التربويـة الإلكترونيـة التفاعليـة الموجهـة للطفـل، وتحديـد خصائصها التقنية والتربوية والعلمية، يظهر جليًّا من خـلال المقارنة بينها وبين ما يوجد في السـوق الإعلامية من المجلات الورقية، وذلك بتحديد الجوانب الإيجابية والسلبية لـكلا النوعين، حتـى نضع المشـتغلين بمجال إعـلام الطفل أمـام خيارات متعـددة ومختلفة دون أن ننتصر لنموذج معين، فوحدهـا المقاصد والأهـداف والحاجة والواقـع الاجتماعي والاقتصـادي، هي المحددات الكفيلة باختيار الوسـيلة الأكثر فائدة في الواقع المناسب.

المجلات الورقية		المجلات الرقمية	
الإيجابيات	السلبيات	الإيجابيات	السلبيات
- تنمي حب القراءة والارتباط بالكتاب. - لا تحتاج إلى جهاز قارئ (حاسوب). - لا تحتاج إلى توصيلات كهربائية. - سهولة القراءة دون متاعب بصرية. - يمكن تغيير مكان القراءة في أي وقت وفي أي ظرف. - تنمي القدرة على الكتابة بخط اليد في الفقرات المخصصة للمسابقات في المجلة. - تنمي المهارات المتعلقة برسم الأشكال واستعمال الألوان. - متاحة للجميع ممن لا يتعاملون مع الأجهزة المعلوماتية.	- تشتمل على عدد محدود من المعلومات. - تشتمل على صور ثابتة فقط. - تغيب فيها التفاعلية (رد الفعل على اختيارات الطفل). - خياراتها التربوية والمعلوماتية محدودة. - تتيح فرصًا أقل للتواصل مع الأقران (رسائل مكتوبة عبر البريد). - سرعان ما يملها الطفل بعد استهلاك موضوعاتها. - تخاطب ذكاءات محدودة - تأخذ حيزًا معينًا في التخزين مما يعجل بالتخلص من أعدادها القديمة في أول فرصة.	- تشتمل على خيارات متعددة للأنشطة. - يشتمل على معلومات متعددة. - يتيح الفرصة للطفل للعمل في فضاءات افتراضية. - يشتمل على صور ثابتة وصور متحركة وأصوات. - يتيح فرصًا تفاعلية مع شخصيات رقمية افتراضية. - تخاطب ذكاءات متعددة. - تتيح فرصة لممارسة الأنشطة في مجموعات. - يتيح فرصًا للتعلم عن بعد. - تتيح فرصًا لاختيار إقاعات ومستويات التعلم. - تتضمن تقويمًا مباشرًا وسريعًا لنشاط التعلم، كما تتضمن تغذية راجعة. - تحقق درجة أعلى من التفاعل والتشويق. - سهولة في التخزين مما يسهل الاحتفاظ بها لأطول وقت.	- تغيب فيها الأنشطة اليدوية التي تنمي مهارات الرسم والكتابة. - تجعل المتعلم يعيش في فضاءات افتراضية غير واقعية. - تكثر فيها المؤثرات الصوتية والحركية مما يجعل الطفل يفتقد المتابعة الدقيقة للأحداث والمواقف والمعلومات. - ليست متاحة لجميع الأطفال وخاصة في البيئات الفقيرة. - لا تضمن فرصًا متساوية للتعلم بين الجميع. - تحتاج إلى معدات معلوماتية وفنية. - أغلب محتوياتها باللغة الأجنبية أو مترجمة. - لا تأخذ بعين الاعتبار بيئة الطفل ومحيطه الاجتماعي والثقافي.

من هنا يمكننا أن نقول: "إن المجلة التربوية الإلكترونية التفاعلية الموجهة للأطفال، هي وسيط تعليمي ترفيهي هادف، متعدد الفقرات والمعلومات العلمية والتربوية، معد بواسطة التكنولوجيا الحديثة ذات الوسائط المتعددة، يضمن للطفل أكبر قدر من التفاعل والإنجاز لفترات أطول، ويسمح له بالاحتفاظ بالتعلمات لأطول فترة ممكنة".

وقد ظهرت منذ بداية الألفية محاولات جادة في العالم العربي لتأسيس مجلات إلكترونية تربوية، تقدم للطفل العربي مادة علمية وتربوية مناسبة لقيمه وحضارته وبيئته، تسعى إلى تنمية قدراته ومهاراته التواصلية والمعرفية، ونذكر منها على سبيل المثال: www.nabilonline.net و www.adabatfal.com و www.majid.ae إلى غيرها من المواقع الإلكترونية.

هذه نماذج وأمثلة من المحاولات الجادة لتأسيس إعلام إلكتروني خاص بالطفل، نحتاج إلى التعريف بها في أوساط الأطفال داخل المؤسسات التعليمية والجمعوية من أجل التفاعل معها، كما تحتاج إلى تقويم رجال التعليم والتربية والإعلام والآباء والأمهات، بل وحتى الأطفال أنفسهم، حتى يعمل القائمون عليها على تطوير تجربتهم من كافة نواحيها التقنية والعلمية والتربوية والتواصلية، كي تصبح قادرة على المنافسة في خضم ملايين التجارب المماثلة الموجودة على الشبكة، والتي تسوق النموذج الغربي بحمولته القيمية والثقافية وبلغات مختلفة وبأساليب غاية في الجاذبية والتشويق.

وسعيًا منا إلى تطوير هذه التجارب، نضع بين أيدي المشتغلين بالإعلام الإلكتروني الموجه للطفل أو المقبلين عليه، مجموعة من الخطوات المنهجية المعينة على إعداد مجلة إلكترونية تربوية منظمة وهادفة موجهة للأطفال.

خطوات منهجية لبناء مشروع مجلة تربوية إلكترونية تفاعلية

يمكننا تحديد أهم الخطوات الناظمة لمنهجية العمل في إعداد مجلة تربوية إلكترونية، باستخدام الوسائط المتعددة فيما يلي:

أ- مرحلة إعداد الإطار النظري للمشروع وتشمل:

• تحديد الرؤية والرسالة والمرجعية الفكرية والثقافية الناظمة للمشروع.

• دراسة تجارب مماثلة (ناجحة مستمرة وفاشلة منقطعة)،

وتحليل أسباب النجاح والفشل في هذه التجارب.

• تحليل الحاجيات ودراسة المعطيات المتوفرة في الواقع (واقع الإعلام التربوي الموجه للطفل).

• تحديد الأهداف العامة للمشروع.

• تحديد الفئة المستهدفة بالمنتوج، من حيث خصائصها النفسية والعقلية ومحيطها الاجتماعي والثقافي.

• تحديد الموارد البشرية اللازمة لتنفيذ المشروع (فريق عمل متعدد التخصصات: نفسية، اجتماعية، تربوية، علمية، فنية، تواصلية، إدارة وتدبير، مالية ومحاسبة).

• تحديد الموارد المالية اللازمة لتنفيذ المشروع.

• تحديد الإطار الزمني لتنفيذ المشروع (السقف الزمني العام والمراحل الزمنية التفصيلية).

• تحديد المعدات والتجهيزات الفنية والمعلوماتية المستخدمة في الإنجاز من أجهزة وبرامج.

• صياغة التصميم التفصيلي للمجلة: أبوابها ومحتوياتها العلمية والتربوية والتواصلية.

• المصادر والمراجع العلمية والتربوية والفنية.

ب- مرحلة الإنجاز العملي للمشروع:

• جمع المعطيات: نصوص وصور وأفلام وأصوات ورسومات متحركة وغير متحركة، وفق الحاجيات المحددة في التصميم التفصيلي للمجلة.

• إعداد الواجهة الرئيسية للمجلة والصفحات الفرعية، وفق التصميم المحدد في الإطار النظري للمجلة.

• بناء المحتوى وتصنيفه باستخدام البرامج والأدوات لمعالجة النصوص، وإعداد الصور والحركات والأفلام والرسومات التوضيحية والأصوات وربطها بشكل فني مع باقي العناصر، لتحقيق الهدف المرجو من المنتوج. ويقوم المشرفون التربويون والمؤلفون، بدور هام في مراقبة ما يتم تصميمه، وطريقة عرضه من قبل فنيي ومبرمجي الوسائط المتعددة للتأكد من خدمة الأهداف التعليمية للمنتج (عمل جماعي لفريق العمل).

• وضع المحتوى المنتج داخل الأبواب التفصيلية للمجلة. وتحتاج هذه الخطوة إلى الجزء الأكبر من الجهد والوقت، علمًا بأن تهييئ المعلومات والصور والنصوص مسبقًا يساعد وبشكل كبير على تنفيذ هذه الخطوة.

• فحص المنتوج وضبطه. وتتم عملية الفحص لكل من المحتوى التعليمي والوظيفي للبرنامج، للتأكد من خلوه من القيم النقيضة لتوجه المجلة، أو الأخطاء الفنية أو العلمية، أو أي خلل في طريقة العرض أو الاستعمال، وتتم مراحل الفحص والتصحيح على المستوى الداخلي، بتدقيقه من طرف المنتجين والمشرفين المشاركين في عملية التصميم والتنفيذ، وعلى المستوى الخارجي من خلال إتاحة الفرصة لاستخدامه من طرف عينة من الفئة المستهدفة أو مشرفين وفنين آخرين.

• مسك المنتوج النهائي وإخراجه على الشكل المطلوب الذي ييسر استخدامه، مثل وضعه على قرص مدمج أو على شبكة الإنترنيت.

• تحديد آليات وطرائق التحيين والتطوير والمتابعة الفنية والتربوية والعلمية والتسويقية للمشروع. ■

---

[*] رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

الهوامش:

[1] مالك إبراهيم الأحمد: "نحو مشروع مجلة رائدة للأطفال"، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف القطرية، عدد:٥٩، ١٩٩٨م.

[2] طارق البكري: مجلات الأطفال ودورها في بناء الشخصية الإسلامية، ص:٢٠٦-٢٠٧، من النسخة الإلكترونية المنشورة في أكتوبر ٢٠٠٣ على العنوان التالي: www.nashiri.net

[3] الكتاب منشور إلكترونيًا في أكتوبر ٢٠٠٣ على العنوان التالي: www.nashiri.net

[4] هادي نعمان الهيتي، جامعة بغداد، كلية الإعلام: "هل يحتاج الأطفال المسلمون في العلم إلى مجلة عالمية ثقافية"؛ بحث منشور ضمن أعمال الندوة الدولية التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو بالتعاون مع جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بالمملكة المغربية في موضوع قضايا الطفل من منظور إسلامي، في الفترة الممتدة من ٢٩ أكتوبر إلى فاتح نوفمبر ٢٠٠٢، ونشرت أعمالها سنة ٢٠٠٦م.

[5] من الإصدارات الحديثة لسلسلة عالم المعرفة، كتاب ثورة الإنفوميديا الوسائط المعلوماتية وكيف تغير عالمنا وحياتك، والكتاب من تأليف "فرانك كيليش"؛ خبير النظم والإستراتيجيات المعلوماتية بالولايات المتحدة الأمريكية ومحاضر في مستقبليات صناعة الحوسبة. وقد ترجم الكتاب إلى العربية "حسام الدين زكرياء" وراجعه "عبد السلام رضوان"، وصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت في يناير ٢٠٠٠م.

د. إبراهيم عبد الباقي أبو عيانة*



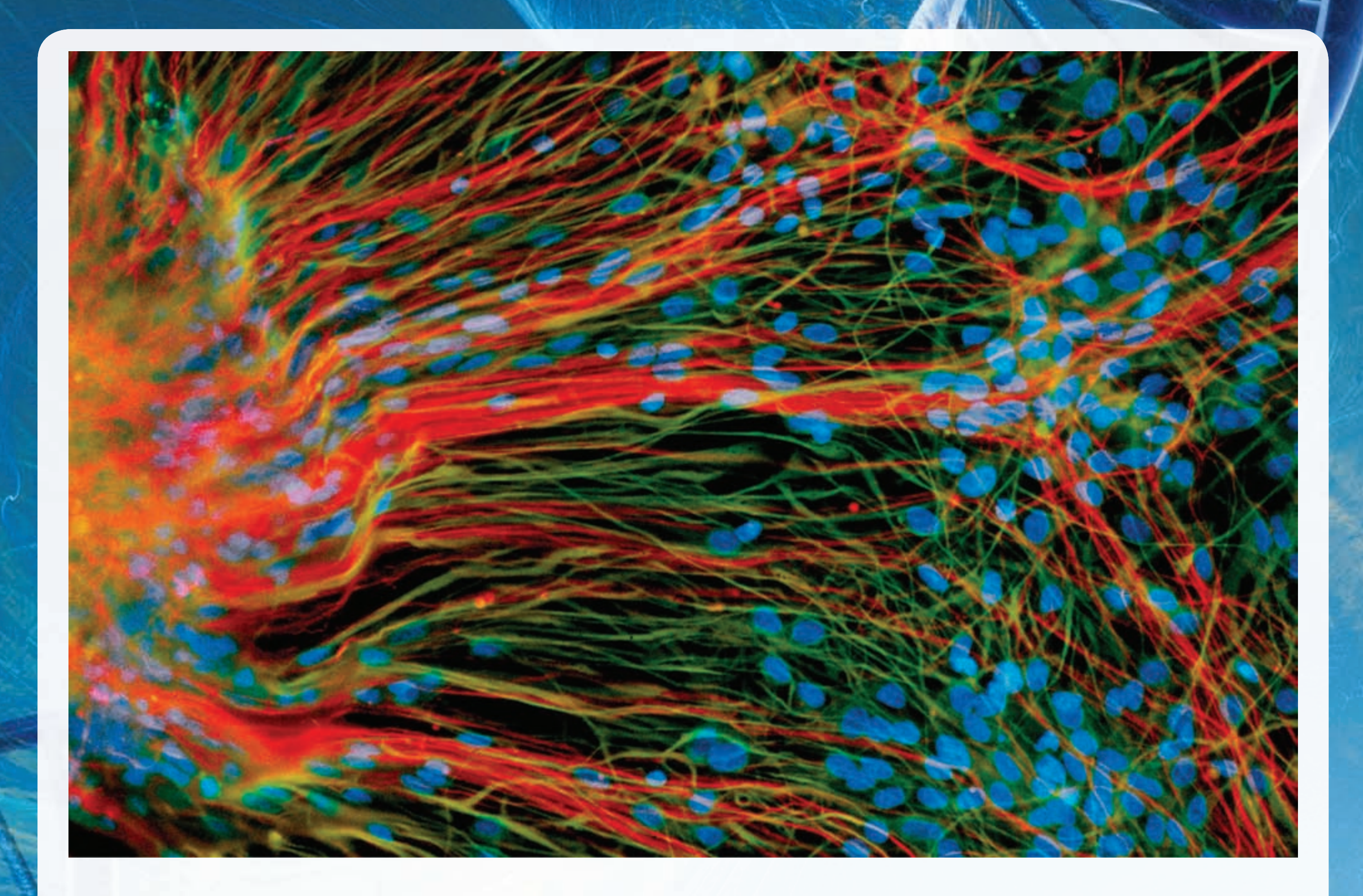
الخلية وطاقاتها الحيوية

عندما تمكن بميكروسكوبه المركب، ملاحظة وجود بعض التقسيمات المنتظمة في رقائق الفلين، أطلق على تلك الصناديق الصغيرة اسم "خلايا" (Cells). لم يدرك "روبرت هوك" العالِم الإنجليزي آنذاك (١٦٦٥)، أنه وضع يديه على كنز مليء بالأسرار والإعجاز. ومع اكتشاف أن الخلية هي وحدة بناء الكائن الحي كانت بداية لعلم الخلية، لكن بحلول القرن العشرين مهّد المجهر الألكتروني الطريق لدراسة المكونات الدقيقة للخلية، ولعل أهم ما يحفظ حياة الكائن الحي هي وفرة الطاقة التي تُعينه على أداء مهامه الحيوية ونشاطاته اليومية. فكيف تُدير الخلية المجهرية شؤون الطاقة داخلها؟!

إن للخلية الحية إستراتيجية غاية في الدقة والترشيد، فهي لا تلجأ إلى حرق جميع وقودها دفعة واحدة -مثل ما يحدث في حرق أي مادة عضوية هيدروكربونية- حيث ستتبدد الطاقة وتتحول المادة العضوية إلى مركبات ثانوية لا قيمة لها. فماذا تفعل الخلية وهي لا تحتاج إلى كل هذه الطاقة الناتجة عن حرق الوقود داخلها؟ إنها تلجأ إلى سلسلة من تفاعلات الأكسدة التي تضمن لها حرق الوقود بداخلها على دفعات، ثم تمتص هذه الطاقة الناتجة وتستخدمها في بناء جزيئات جديدة تختزن فيها الطاقة كرصيد تلجأ إليه عند الحاجة لإتمام بعض العمليات الحيوية. والمعجز أن للخلية قدرة على تحويل تلك الطاقة، إلى طاقة حركية أو كهربية تُستغل في إرسال النبضات العصبية أو طاقة ضوئية، مثلما يحدث في بعض الأسماك في قيعان البحار والمحيطات.

مخالفة قوانين الديناميكا الحرارية

الكائن الحي في حالة نمو دائم، لذا فعمليات البناء والتركيب في الخلية مستمرة، ويعني ذلك ازدياد الطاقة الناتجة وعدم تناقصها، مخالفًا بذلك قوانين "الديناميكا الحرارية" (Thermodynamics) التي تقضي بضرورة تضاؤل الطاقة تدريجيًّا مع مرور الوقت كما في حالة احتراق المواد العضوية، وبذلك تتميز الأنظمة الحية عما يحيط بها من مخلوقات.



محطة القوى الرئيسية في الخلية

لا تأخذك الدهشة عندما تعلم أن جسيمًا خلويًا لم يُكتشف إلا في نهاية القرن الثامن عشر، على يد العالمين "فليمنج" (Flemming) و"بيندا" (Benda) عام ١٨٩٧، وحُدد على أنه مركز الطاقة في الخلية عام ١٩٤٠، ضئيل للغاية عرضه (٠,٥-١ ميكرون) وطوله (١٠-١٢ ميكرون)، عظيم الشأن يسمى "الميتوكوندريا" (Mitochondria) هو الآلة الجزيئية المسؤولة عن توليد الطاقة واختزانها في الكائن الحي. وكلما زاد نشاط الخلايا وتخصصها زاد محتواها من الميتوكوندريا والعكس.. ففي خلايا الكبد تمثل الميتوكوندريا (٢٠٪) من وزن الخلية.

وعند تكبيرها (٢٤٠,٠٠٠) مرة تحت ميكروسكوب خاص، وُجد أنها تتركب من جدار رقيق جدًّا يحيط بفراغ داخلي يحتوي على سائل هلامي شبه شفاف -يحتوي على أغلب الأنزيمات اللازمة لإتمام دورة حمض الستريك التي تنطلق فيها الطاقة- ويتركب الجدار من غشائين رقيقين يتكونان من جزيئات البروتين يفصل بينهما فراغ رقيق -يتكون من طبقة دهنية- وينثني الغشاء الداخلي ليكوّن بروزًا على طول الجدار ليزيد مساحة السطح التي تتم عليه آلاف التفاعلات، ويبلغ سُمك الغشاء الواحد من ٦٠ إلى ٧٠ إنجستروم (١ إنجستروم = جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر).. وهي تتحكم في حجمها، فكلما زاد تركيز جزيئات (ATP) بداخلها انكمش حجمها، وإذا ما قل تسترخي ليتسع حجمها مما يمكنها من القيام بعمليات تحويل طاقة جديدة وإنتاج خازن الطاقة (ATP).. وهي ليست عشوائية في عملها، بل يرتبط ذلك باحتياجات الخلية من الطاقة ومدى قدرة هذه الخلية على سحب خازنات الطاقة (ATP) في العمليات الحيوية.

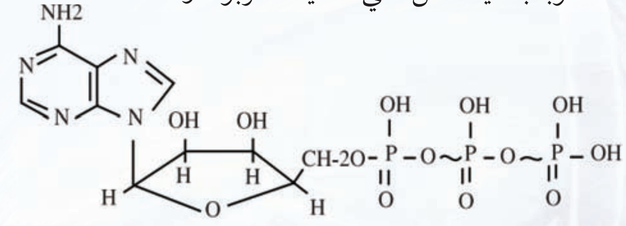
الوقود

إنه الغذاء الممتص بعد هضمه، بجميع عناصره العضوية التي تمتلك مقادير مختلفة من الطاقة الكامنة بين الروابط الكيميائية لذراتها، تنطلق هذه المقادير من الطاقة عندما يتأكسد المركب العضوي أكسدة تامة أو عند انحلال تلك الروابط. فعند احتراق "جرام جزيئ" -الوزن الجزيئي للجلوكوز مقدرًا بالجرامات ويقدر بـ(١٨٠جم)- من الجلوكوز في الهواء، تنطلق الطاقة (٦٩٠,٠٠٠ سعر حراري) دفعة واحدة وتتحول ما به من ذرات كربون إلى ثاني أكسيد الكربون، وما به من هيدروجين وأكسجين إلى ماء (مواد إخراجية فقيرة في

الطاقـة). وهذا القدر الكبير من الطاقة، ينطلق كلما تم احراق (١٨٠ جـم) جلوكـوزًا احتراقًـا تامًّا، سـواء كان الاحتراق أو الأكسـدة على خطوة واحدة أو عدة خطوات.. فكيف تتعامل الخلية مع هذا القدر الهائل من السعرات الحرارية؟! لذا فهي تفضل إتمام عملية الأكسـدة على عدة خطوات تحت ظروف غايـة الدقة والإحـكام، لكي تمكنها من الاسـتفادة من غالبية الطاقـة المنطلقـة في كل خطوة، وهذا الاسـتخدام للطاقة من قبَل الخلية على هيئة حرارة أمر مسـتحيل، لأنه -ببساطة- لم تُسجّل للآن تفاوت في درجات الحرارة بين خلية وأخرى.

وهنا يفرض سـؤال نفسـه: كيف للخليـة المجهرية حفظ واستخدام الطاقة بداخلها؟!

بعد العديد من التجارب، ثبت أن الخلية تقتنص الطاقة في صورة طاقة كيمائية تسـاعد على بذل الشـغل دون أدنى تغير فـي درجـات الحرارة، وهذا يتطلب منها التحكم الشـديد في عمليات تأكسد الغذاء، ويعاونها في ذلك عشرات الأنزيمات التـي يقـوم كل منهـا بتفاعل محـدد دون غيره مـن تفاعلات الأكسـدة، ينتـج عـن هذه التفاعلات سلسـلة مـن التفاعلات الكيمائية تنتهي بأكسدة تامة للغذاء المهضوم، وينطلق في كل خطـوة قـدر معين من الطاقة تُختزن علـى هيئة روابط كيمائية في بعض التراكيب الخاصه المسماة بـ"خازنات الطاقة" (ATP) مصحوبًا بكميات من ثاني أكسيد الكربون والماء.



أدينوسين ثلاثي الفوسفات ATP.

لاحظ الروابط (~)، روابط عالية الطاقة تحصل على طاقتها من أكسدة الجلوكوز.

أكسـدة الجلوكوز

تشـكل الخلية في أكسـدة الجلوكوز تفاعلات شديدة التعقيد دام الكشـف عنها عشرات السنين، نمر عليها دون أن نلج في التفاصيـل، حيث يتأكسـد الجلوكوز عبر دورتيـن متداخلتين همـا؛ "دورة حمـض البيروفيـك" و"دورة كريبـس"، وفي كل خطوة من سلاسل التفاعلات الطويلة بهاتين الدورتين، ينطلق قدرٌ من الطاقة تُستغل في تكوين جزيئات عالية الطاقة (ATP)، حيـث تتحد أيونات الفوسـفات مع إحـدى القواعد العضوية



الخلية ومراكز الطاقة فيها.

المحتويـة علـى نيتروجيـن، والتي ترتبط بدورها بجزء سـكر لتعطي جزء (ATP) الذي يحتوي على روابط عالية الطاقة بين مجموعات الفوسفات، ويمكنها إنفاق هذه الطاقة عند الطلب للقيام بنشـاط عضلي مـا، فتفقد مجموعة فوسـفات وتتحول إلـى مركـب ثنائـي الفوسـفات (ADP) الذي يمكنـه الارتباط بمجموعة فوسفات أخرى مكونة جزء (ATP) من جديد.

إن عمليـة تحـول هـذه الطاقة في الخلية الحية، تتم بكفاءة عاليـة تتفـوق كثيرًا على كفاءة مثل هـذه التحولات في معظم الآلات المعروفـة.. وقد يدعو ذلك للاندهاش، وسـرعان ما تزول تلك الدهشة عندما نعلم أن أكسدة جزء من الجلوكوز، يعطي عند أكسدته أكسدة كاملة إلى ثاني أكسيد الكربون وماء قدرًا من الطاقة يكفي لتحويل ٣٨ جزيئًا (ADP) إلى ٣٨ جزيئًا (ATP)، وذلك عن طرق اتحادهم مع ٣٨ مجموعة فوسفات.

وإذا علمنـا أن تحويـل جزء (ADP) إلى جزء (ATP) يحتاج إلى (١٢٠٠ سعر حراري)، وعليه فتحويل الـ ٣٨ جزءًا (ADP) يحتاج إلى (٣٨×١٢٠٠ = ٤٥٦,٠٠٠ سعر).

وبمـا أن الأكسـدة الكاملـة لجزء الجلوكـوز تعطي (٦٩٠,٠٠٠) سـعرًا، فـإن هـذا يعني أن تكويـن ٣٨ جزءًا من (ATP) بأكسدة جزء واحد من الجلوكوز، يتسبب في استرجاع نحـو (٦٦٪ من الطاقة الكلية الناتجـة)، وهذا معناه أن الخلية عند أكسدتها لجزء جلوكوز، فإنها تُتمم ذلك بعناية فائقة؛ فلا تُضيـع أي جزء من الطاقة الناتجة وعندما تخزن (٦٦٪) منها، فإنها بذلك تفوق الآلات الحديثـة. فمثلاً الآلات المتحركة

بالبخار، لا تستطيع أن تحول أكثر من (٣٨٪) من الطاقة إلى عمل مفيد، وهذا يؤكد الكفاءة العالية التي تدير بها الخلية الحية عملياتها المختلفة. وهنا تتجلى عظمة الخالق ﷻ في تميز الأنظمة الحية عن الجوامد.

ويُعد الدهن من أهم مصادر الطاقة لدى الخلية الحية، وله تركيب عام يتمثل في ارتباط الجلسرين بثلاث وحدات من الحمض الدهني قد تكون مختلفة أو من نفس النوع. والحمض الدهني هو الذي تستخدمه الخلية في إنتاج الطاقة، ويتركب الحمض الدهني من مجموعة "كربوكسيل" (COOH) وسلسلة هيدروكربونية.

ولقد اكتشف العلماء أسلوب الخلية في أكسدة الحمض الدهني للحصول على الطاقة بعد جهد مضني، ووجدوا أن تلك العملية تتم في خطوات متناسقة متناغمة؛ يتم في كل خطوة استقطاع ذرتين من الكربون، بشرط أن تكون إحداهما ذرة مجموعة الكربوكسيل والمجاورة لها، وبذلك تقل ذرات الكربون ذرتين وتتحول ذرة الكربون الثالثة إلى مجموعة كربوكسيل ثم يتم استقطاعها من المجاورة لها، وهكذا تقل في كل خطوة ذرتان من الكربون حتى يتأكسد الحمض الدهني تمامًا، متحولاً إلى طاقة وثاني أكسيد الكربون وماء. فلو افترضنا أن التفاعل بدأ في حمض دهني ثماني ذرات يتحول بعد الخطوة الأولى لحمض دهني ست ذرات ثم إلى حمض دهنى أربع ذرات وهكذا.

8 ذرات $CH_3 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - COOH$

6 ذرات $CH_3 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - CH_2 - COOH$

4 ذرات $CH_3 - CH_2 - CH_2 - COOH$

أكسدة الأحماض الدهنية.

اقتصاد فائق وإعجاز مذهل

وتتم عملية أكسدة الأحماض الدهنية بالخلية، بمساعدة الميتوكوندريا وما بها من أنزيمات متخصصة، بالإضافة إلى عوامل مساعدة تسمى "CO - Enzyme" المرافق الأنزيمي.

والعجيب أن عملية أكسدة الحمض الدهني تأخذ مسارًا فريدًا، فتفاعلات الأكسدة تبدأ من اللحظة التي يرتبط فيها الحمض الدهني بمساعد الأنزيم، وتبلغ درجة الارتباط حدًّا هائلاً فلا يحدث انفكاك لمساعد الأنزيم حتى تنتهي عملية الأكسدة تمامًا، وعندئذ ينفصل مساعد الأنزيم على صورته الحرة.

والخلية لديها حسن تدبير فائق لمواردها وترشيد عجيب في استهلاكها.. فبالإضافة إلى ما سبق في هذا السياق، فإنها تستهلك خازنات الطاقة (ATP) في إنتاج مساعد الأنزيم، ولذا فهي تُحسن استخدامه.. فبمجرد ارتباط مساعد الأنزيم بالحمض الدهني، لا يمكن فك هذا الارتباط إلا بعد انتهاء عملية الأكسدة تمامًا، وهنا يتجلى الاقتصاد الفائق والترشيد الهائل التي تمارسه الكائنات الحية في إدارة الطاقة.

ولكن ما الفائدة التي تجنيها الخلية من أكسدة الأحماض الدهنية إذا كانت تنفق مقابلها أجزاء من خازنات الطاقة (ATP).. وهنا يَبرُز مثال آخر في حسن إدارة الخلية للطاقة؛ فعندما تنفق الخلية جزءًا واحدًا من (ATP) في بداية عملية أكسدة الأحماض الدهنية، فإنها تجني في نهاية المشوار طاقة تكفي لتخليق (١٠٠ جزء) (ATP)!

ومن الإعجاز أن عملية إنتاج الطاقة والاحتفاظ بها في الخلية ليست مركزية، بل هي إلى حد بعيد محلية.. بمعنى أن كل خلية من خلايا الكائن الحي لها محطات القوى الخاصة بها، حيث إنه يلزم توفير الطاقة في نفس الموقع الذي يتطلب استخدامها فقط؟! وبالتالي لا يُفقد أي جزء من تلك الطاقة أثناء انتقالها.. وقد يُذهل العقل البشري عندما يعلم أن الخلية العادية تحتاج إلى قدر من الطاقة يحمله مليوني من جزيئات (ATP) في الثانية الواحدة، لكي تؤمن التفاعلات التي تدور بها وتقوم بأنشطتها الحيوية، وكلما كانت خلايا من نوع خاص -مثل أجنحة الطائر- زاد الطلب على أعداد محطات القوى وما تنتجه من طاقة.

فمن علَّم تلك العضية متناهية الدقة ما يعجز عن تنفيذه علماء البشرية ولو اجتمعوا له؟ ومن وضع فيها كل هذه التقنيات التي لم يستوعبها أفذاذ العلماء إلا بعد عشرات السنين من الجهد والعمل الدؤوب، ولا يزالون في بدايات الطريق؟ ■

(*) باحث في معهد بحوث تكنولوجيا الأغذية، مركز البحوث الزراعية، الجيزة / مصر.

د. محمد باباعمي*

عنوان الندوة: قراءات في كتاب **"ونحن نبني حضارتنا"** للمفكر التركي الأستاذ فتح الله كولن.

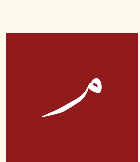
المنظمون: كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس، مجلة حراء.

المكان: مدرج الشريف الإدريسي بكلة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

التاريخ: ١٩ يناير ٢٠١٢

في ختام ندوة "ونحن نبني حضارتنا"

من الأنصاري إلى الأنصار



مَن قال إن ما يسِم الحياة من أحداث هو وليد صدفة؟! مَن قال إن ثمة فوضى تحكم نسق الحياة وتصبغ عالَم الشهادة؟!

مَن ذا الذي يصدِّق أن شيئًا ما -أيَّ شيء حتى وإن كان وقوعُ ذبابة على صحن أحد منَّا- هو مجرد حدث لا معنى له في منطق المعنى؟!

نعم، إن غلوَّ تصوراتنا وشطط أحكامنا -أحيانًا- لا تعني أن المدرَكات تابعة أو هي موشور لإدراكنا القاصِر. فشتان بين الشيء وظلِّ الشيء، وشتان بين الحقيقة وشبح الحقيقة.

فريد الأنصاري، شمس تسطع من المغرب

مِن هذا المقام السامق، الذي لا يجد للعبثية والفوضى مكانًا، أقرأ العلاقة بين المفكر العبقري "فريد الأنصاري" -رحمه الله- وميلادِ "جيل الأنصار" -حماهم الله- من رحم المغرب الحبيب.

"فالأنصاري" لم يمت ولم يغادر، إذ لا تزال أنفاسه الطاهرة تعبق في كل بقعة من بقاع الأرض الطيبة، ولا تزال كلماته الصادقة توقظ الضمائر مع كلِّ حنين وأنين وفي كل وقت وحين.

إن "الأنصاري" قد وهب الحياة لأهله وذويه، وفدى بنفسه لبلده وقومه؛ فكان -اليومَ- مغربُه مشرقًا، ولقد كان -قبل ذلك- مشرقُه مغربًا.

كيف ذلك؟

إنه -رحمه الله- يوم أشرق فجرُه الصادقُ على المغرب،



اختفت الخفافيش، وكفَّت البوم عن زرع الشؤم، وارتفع الريح الصقيع -مِن تلكم الربوع- ومعه الشتاء الفظيع، فحلَّ محلَّهما النسيمُ العليل والربيع الجميل.

أشرق على الناس بقلبه المؤمن الموقِن وبعقله الذكي الأصمعي، فصدَق أن يقال فيه ما قاله الدكتور "عبَّادي" في وصفه: "إنه اكتشف عرف القرآن، فسما إلى مقام الملائكة وأهل الجنان"، ثم لقي القبول في السماء، ونزل غيثًا هامعًا على أهل الأرض، هدية ورحمة من رب الأرض والسماء.

ثم إن "الأنصاري" -رحمه الله- يوم فارق الحياة واستجاب لنداء الأزل وأفلَت شمس روحه الزكية... حينها، أشرق على المغرب يومٌ يذكِّرنا بيوم الفتح، أو إن شئت فقُل: هو أشبه ما يكون بيوم الحديبية؛ بدت فيه أمارات الخير، ولَمَّا تكتمل بعدُ تمثُّلاته، حاشا في أفئدة الملهَمين وعلى أرواح الواصِلين.

المهاجرون والأنصار

"الهجرة" حركة بعد سكون، وطاقة بعد كمون، ووعي بعد غفلة، وجهاد بعد غفوة... أما المهاجِرون فهم جميعُ من تَخذ الهجرة سبيلاً، فلم يبخل ولم يذلَّ ولم يتقاعس.

أما "النصرة" فأبرز أركانها القلبُ المحبُّ، والعقل النافذ، والساعد الكريم، والسيف الصقيل، والخلق المتين... وأما الإنصار فهم كلُّ من جعل تلكم الصفاتِ أرضه وسماءه، وصبغ بها ليله ونهاره، ولم يتردَّد طرفة عين ولا أقلَّ من ذلك ولا أكثر.

ومن ثم، كان لكل زمان مهاجروه وأنصاره، تمامًا كما أن لجميع الأحايين صحابته وأتباعه، ولذا وجب على كل مسلم أن يكون صحابيَّ وقته أو تابعيَّ زمانه، وأن لا يكون ثالثهما فيزيغ. يجب على كل مؤمن أن يجعل الهجرة والنصرة منتهى آماله ومطلق أحلامه.

واليوم، كانت الهجرة من سفوح الأناضول، وجاءت النصرة من شواطئ المغرب: في الدار البيضاء، والرباط، ووجدة، وفاس، ومكناس... وليست جميعُ الشطآن محاذية للبحار والمحيطات.

هنالك، في جامعة محمد الخامس، بالرباط، رباطِ الفتح، رأيتُ بأمّ عيني "أنصارًا": منهم رجال ومنهم نساء، منهم فقراء ومنهم أغنياء، منهم طلبة علم ومنهم علماء... جميعُهم جاء ليعبّر عن حبه وولائه، ويعلن عن وفائه وصفائه، ولقد سمعتُ صوتًا أجشَّ يقول: "إن أتاكم الناس بدلائهم أو حتى ببحارهم

وأنهُرهم، فلستُ أملك سوى قِربة واحدة جفَّت منذ أمد، ولا أعرف هل ستحمل الماء أم أنها ستهريقه أرضًا... حسبي أني جئت بقربتي، وأنشدت مع الشاعر:

ذي قربتي يا أخي في الحبِّ أرسِلْها

إلى الحبيب، فهل يُرضيه متَّسمي؟

ثمَّ يمَّم بنا الوفدُ شطر وجْدَة، فاستقبلنا على مشارفها "رجال جبال"، من طينة المصطفى ومن روْح المجتبى، قاسمونا قلوبهم وعقولهم، فأطعموا وآووا، ونصروا وانتصروا... ولم تطُل الزيارة كثيرًا، لكأنها نسمة من ريح الجنَّة هبَّت، ثم انقطعت لتعود ولو بعد حين.

ومِن عادة الناس أن يلحِقوا ذكرَ فاسٍ بمكناس؛ ولكنَّا اليوم -لحاجة في النفس لا تباح- بدأنا بمكناس، ثم ولينا شطرَ فاس، وفي مقبرتها الهادئة تقطَّعت بنا الأنفاس، واختنقت، فكانت العينُ كاشفةً سرَّ الكوامن، ذلك أنَّا وقفنا على قبر "الأنصاريّ" -رحمه الله- ونحن نعجب من شبر ترابٍ يأوي قلبًا وعقلاً ومعنى، في حينٍ يعجز الكون برمَّته عن حمله، ومما زاد الدمع سخونة والكبد تمزقًا، أنَّ قبر العالم الفذِّ غير مجصَّص ولا مبلَّط... وحسُن أن نقول: إن القبر عرف بالإنصاري، ولم يُعرف هو بالقبر، لكن الكثير من القبور في العالمين، لا يعرَف مَن ينزلها لولا أنَّ العلامات والكتابات، والجصِّ والرخام، تذكِّر بساكنيها.

رحمك الله يا أنصاري برحمته الواسعة، وأسكنك ربوع جنانه الفسيحة.

في فاسٍ ألفى فتحُ الله قلوب الناسِ منشرحة، والعقول منهم مفتَّقة، والأيدي مبسوطة، وهي تقول بملء فيها: "ها نحن نستقبلكم، ونقاسمكم كلَّ ما نملك من معنًى ومبنًى، فلا تحرمونا عِطر "الأنصار" ولا تفوِّتوا علينا فرصة "الانتصار"".

ولقد كان للوفد لقاء حميميٌّ علميٌّ في جامعتها، فلم تتَّسع المقاعدُ للحاضرين وذلك ليلاً بعد العشاء، وليس من العادة أن يؤمَّ الناس حرَم الجامعة حين الظُّلمة إلاَّ أن يتيقَّنوا أنَّ ثمة نورًا حقيقًا، وفكرًا دقيقًا، وقلبًا رقيقًا.

ولقد كانت "الدار البيضاء" محطَّ الرحال، وعنوان الجمال والجلال، منها البداية وفيها النهاية، فما شبعت العينُ، وما ارتوى القلبُ، ولا رضي العقل... ذلك أنَّ لها



أسـرارًا لـم تفصح عنها بعدُ، وأنَّ فـي كنفها جواهر أجَّلت بيـانَ رونقهـا إلى أمد... كأنها تغازلنـا بوجوب العودة، بل لكأنها تتمنَّع، والتمنع في الحبِّ أقسـى أنواع الحبِّ... لو يتذوَّق المتذوِّقون.

أنـا لا أبغـي تخصيص اسـم من الأسـماء، فهـم مئاتٌ وهـم ألـوفٌ، ممـن حضَّـر وحاضـر، وممـن آوى ونصر، وممن بكى وأبكى، وممن دعا وألح في الدعا... والوسـم قـد يُخفي المحاسـن، وقـد يبعِّد القريب، ويقلِّل من شـأن ذي الشـأن... فقصاراي أن أقول، وجميعُ هؤلاء الأنصار في قلب القلب... حسبي أن أقول: "إنَّ المغرب اليوم قِبلة، وعلى جبينه الأغرِّ نلقي قُبلة"، ثم نردف ونقول:

"مهلاً أخيَّ، أصِخ أذنك، وألقِ السمع، فها عقبةُ، وابن سـعدٍ، وطارقٌ... يحيُّون الفاتح، والرومي، والنورسـي... أمـا اليوم فقـد انبرت المغرب على بكـرة أبيها لتحيي فتح الله، وهـا قد جـاءت من كل حدب وصوب لإعلان البيعة، بيعـةِ النصرة والانتصـار... ولقد كان الأنصـاري أمير هذا الركب، فها قد رحل وترك أهله على المحجَّة، أوفياء بررة، ما بدَّلوا وما غيروا... لكنهم آووا ونصروا.

سأل السائل وهو يحترق شوقًا في لحظات الوداع الزكي: هـذا دور الأنصار قد تمَّ، فما هو دور المهاجرين يا ترى؟!

مقتبسات من الندوة

د. وائـل بن جالون (رئيـس جامعة محمـد الخامس)

تصبُّ حـوارات هذه الندوة فـي دعم العلاقـات المغربية التركية، وتصبُّ في توسيع معرفة الأدباء والمفكرين بعضهم ببعـض، وتصـبُّ في فكـر الأسـتاذ الكبير فتـح الله كولن، المربِّي الفاضل، والناشِـط في مجـال التربية بالخصوص. وإنَّ التربيـة هـي رهـان المسـتقبل، ولا تنميةَ بـدون تربية وتعليم، وهذه هي المعضلة الأساسـية بالنسبة لنمو بلادنا.

د. عبـد الرحيم بنحـادة (عميد كليـة الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط)

عندما يتأمَّل المرء في الخطوات الأولى لحياة الأستاذ فتح الله كولن، يقف عند مسألة التعدُّد اللغويِّ لديه؛ فإلى جانب اللغة التركية، حرص على تعلُّم اللغتين العربية والفارسية. وبذلك تمكَّن من الإمسـاك بالمداخل الأساسـية لدراسـة الحضارة الإسلامية، من جميع جوانبها.

د. العربي بوسلهام (المسؤول عن مسلك الماستر "خصائص خطاب الشرعي وأهمية في الحوار")

أفكار الأسـتاذ فتح الله كولن في كتابه "ونحن نبني حضارتنا"، ترتكـز علـى أبعاد تثبِّـت الهويـة، وتنفتح على الـذات وعلى الآخر كذلك، وتسـتنفِر قدرات الإنسـان نحـو العطاء والبناء. وقـد نظِّمـت هذه النـدوة بالتعـاون مع مجلة "حـراء". ونحن فخـورون بهذه الشـراكة التي نعقدها باسـم مسـلك الماسـتر في الدراسـات الإسـلامية العليا، بعنوان "خصائص الخطاب الشرعي وأهميته في الحوار".

مصطفى أوزجان (مستشار مجلة حراء)

الأستاذ فتح الله كولن إذا قرأناه سنجد أنه لا يبني أفكاره على ردودِ أفعـالٍ، إنما يطرح مشـروعا حضاريـا ينبثق من جذورنا الروحية. إنَّ الثروة الحقيقية، ليست أن تمتلك التكنولوجيا أو أن تحقِّق التقدم الاقتصادي؛ إنَّ أكبر قيمة هي قيمة الإنسان: الإنسـانُ الكفء الـذي يسـتطيع أن يفعِّل مـوارده العقلية مع مـوارده القلبيـة، وأن يـزاوج بيـن العلـوم الدقيقـة الدنيويـة، والعلوم الدينية القلبية.

د. بشرى البداوي (جامعة محمد الخامس)

إنَّ الأسـتاذ فتـح الله كولـن ليـس مجـرَّد مفكِّـر له دراسـات وأبحاث وكتب ومؤلفات؛ الأسـتاذ صاحبُ مشروعٍ وبرنامج من أجل بناء الشـخصية المسـلمة، على أسسٍ جديدةٍ، ووفق رؤيـة ومنظومة فكرية وحركية متكاملـةٍ، قوامها الانطلاق من الـذات، والانفتـاح علـى الآخـر؛ دون مركَّبـات نقص ودون إسقاطات.

د. مريم آيت أحمد (جامعة ابن طفيل)

عندما تقرأ للأسـتاذ كولن في الفلسـفة تراه فيلسـوفًا، وعندما تقـرأ له في الشـعر تـراه شـاعرًا، وعندما تقرأ له فـي الجانب الروحانـي العرفانـي تـراه عرفانيًّا، وعندما تقرأ لـه في الحقل المعرفـي العلمي الإبسـتمولوجي تراه عالمًـا، وعندما تقرأ له في المجال السياسـيِّ تراه خبيرًا اسـتراتيجيًّا سياسـيًّا. هذا هو الرجـل الموسـوعة، هذا هو مجدد القرن الواحد والعشـرين. فتـح الله كولـن قدّم لنـا أنموذجًـا عمليًّا وأجاب على سـؤال "كيـف نقدِّم رسـالة إنسـانية هادئة، تصل إلى القلـوب، وتغيِّر الأعماق، قبل أن تغير المظاهر والشكليات؟".



د. عبد الحميد مدكور (جامعة القاهرة)

الـذي حـدث مـع الأسـتاذ فتـح الله كولن، ومـع هـذه النقلة الحركيـة، هـو الانتقال من مضـغ الفكر واجتـراره، إلى عملٍ تتحوَّل به المجتمعات من طريق إلى طريق، ومن مستوى إلى مستوى، ومن مرحلة تاريخية - ينبغي أن تنتهي بكلِّ آثارها - إلى مرحلة أخرى جديدة.

د. يوسف الكتاني (جامعة القرويين)

اسـمحوا لـي أن أقول بأننـي أرّختُ للصحوة الإسـلامية منذ أكثر من أربعين سنة، ولكني لم أعثر على داعية يشبه الأستاذ فتـح الله كولـن. لمَّـا أتـى فتـح الله كولـن أتى بمنهـج جديد، وأسـلوب جديـد، وأسس جديدة، ارتبطت رأسًـا بما سـماه "عصر السعادة"، وهو عصر النبوة. من هنا كان منطلق فتح الله كولن، الذي كان مسكونا بالقرآن الكريم إلى حدّ أنه يبشر بأنَّ العصر الآتي، وأنَّ عصر النهضة، وعصر التحول إلى الإسلام، هو عصر القرآن، باعتباره آخر رسالة إلهية إلى البشر جميعًا.

د. محمد أمين السماعيلي (جامعة محمد الخامس)

فتح الله كولن قال بلسان حاله: أنا أريد أن أكون خادمًا لمحمد ﷺ. إنمـا أريـد أن ينتصـر القـرآن ليـس بالسـيف، ولكن كما انتصر على يد محمد ﷺ بالأسـوةِ الحسـنة وبالتي هي أحسن.

د. عز الدين توفيق (جامعة الحسن الثاني)

إن الأمـر الـذي لا تخطئـه العين لمـن يقرأ مؤلفات الأسـتاذ فتـح الله كولـن، هـو أنه يختـار مفرداتـه بعنايـة، بخاصَّة تلك التـي يؤسّـس عليها مفهومَه للنهضة. فهو يعلـم أنَّ المفردات أدواتٌ للتواصـل بينه وبيـن القرَّاء، وهذا الانتقاء يُجريه داخل القامـوس الإسـلامي. فهـو يفضّـل المصطلحـات الأصيلـة علـى المسـتورَدة، ويؤكّـد قدرتـه هـذه الأصيلة علـى الوفاء بالمقصـود. فهـو يفضِّل مثلا مفـردات: الإصـلاح، والتغيير، والبعـث، والإحيـاء، والتجديـد، والبناء... علـى مصطلحات مثـل: التقدُّم، والحداثـة، والتغريب ... وبما أنه يسـتعمل في الغالـب مفـردات أصيلـة، فهو يلتقـي مع كثيرٍ مـن المفكِّرين المسـلمين، فـي لغـة تعيـن القـارئ علـى فهـم مقصـوده.

د. محمد باباعمي (مدير معهد المناهج بالجزائر)

قلـتُ في نفسـي: نحـن نعلم أنَّ العـرب قد اكتشـفوا الصفر، وهذه مبرَّة في تراثهم الحضاريّ... واليوم، أعتقد أنَّ الأسـتاذ فتح الله كولن قد اكتشـف "الواحد"... فله مقولة عميقة جدًّا، يقـول فيهـا: "كن صفـرًا في حظوظ نفسـك.. كـن صفرًا في طلبـك للأجـر.. كـن صفرًا في لهثـك وراء الشـهرة.. فعندما تكثـر الأصفار، ابحث عـن "الواحد الأحد"، الذي تضعه أمام أصفـارك، فتكـون بـه لا بغيره، معـه لا مع غيـره، إلى جواره لا إلـى جوار غيـره... تكون رقمًا كبيـرًا لامتناهيًا: تكون كلَّ شـيء. مِـن هنا ننطلق فنقول: إنَّ الأسـتاذ فتـح الله كولن كان يبحث عن نظرية كلِّ شيء.

جمال تُرك (مدير مركز الدراسات الأكاديمية بإسطنبول)

إن مصطلـح "تأشـيرة الوجـدان" مهمٌ جدًّا عند الأسـتاذ فتح الله كولـن. كان يقـول: "يـا أخـي، إذا أردت أن تقـول شـيئًا، فلابـد أن يكون على كل كلمة "تأشـيرة الوجـدان". قال مرَّة: "إذا أردت أن تقـول: سـبحان الله فقلـتَ "سُـبْ" ثم نظرت إلى داخلـك، فوجدتها لا تنبثق من القلب، فاسـكت يا أخي وإلا فأنت تكذب".

د. سليمان الدقور (الجامعة الأردنية)

ما دمنا نتكلَّم عن المشروع الحضاريّ الذي يقدّمه الأستاذ فتح الله كولـن، فلابـد من أن نقدّم هذا الفكر على أنه مشـروعٌ، له رسـالته، وله أهدافه، وله آياته، وله مجالاته، وله وسائله، وله أساليبه وطرقه. حديثنا عن الأستاذ نفسه هو حديث عجيب... عجيـبٌ، لكونـك تـرى أمامـك رجـلاً عُجـن بقولـه تعالى: ﴿وَلِتُصْنَـعَ عَلَـى عَيْنِـي﴾، وبقولـه سـبحانه: ﴿وَاصْطَنَعْتُـكَ لِنَفْسِي﴾، فكان شعاره: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

أ.د. عماد الدين خليل*



مفارقة الإنسان والتقدم رؤية مقارنة (٢)

تمثـل مفارقـة الإنسـان والتقدم إحـدى نقاط الارتكاز فـي فكر النورسـي، فهو يرى أن العلـم والتقـدم والمعطى الحضـاري في نهاية الأمر، لن يحقق السـعادة المرجوة للإنسان ما لم تضبطه وتوجهه القيم والتعاليم المنزّلة من السماء، حيث يلتقي الوحي والوجود بتناغم وتناسق يمنحان الفعل الحضاري مغزاه الذي يتوافق ووظيفة الإنسان في هذا العالم، باعتباره كائنًا مسـتخلفًا سـخّر له العالم، وأريد منه منذ لحظات الخلق الأولى، أن يتلقى "الكلمات" من السـماء للتحقق بأمانة الاسـتخلاف المنضبط في هذا العالم، وإلا جنحت به الجوائح، وانحرفت به عن الصراط، وساقته صوب الطرق المعوجّة والنهايات المسدودة، وملأت حياته بالتعاسة والآلام والعذاب: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۞ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ قُلْنَا

اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة:٣٦-٣٩).

التصور القرآني لمهمة الإنسان في الأرض

والنورسي في هذا ينطلق من التصوّر القرآني لمهمة الإنسان في الأرض، ولطبيعة وظيفته الحضارية فيها، وهو يلتقي بشكل من الأشكال، برؤية "جيوروجيو" حول الإنسان المعذّب الذي ساقته الآلية المجردة عن بُعدها الإنساني، كما دفعته النظم الوضعية الكافرة والقيادات الطاغوتية الضالة إلى التعاسة والضياع. كما أنه يلتقي مع "مارسيل بوازار" في ضرورة أن ينبثق النشاط العلمي والحضاري عمومًا، من حيثيات رؤية إيمانية تمنح العلم والحضارة مغزاهما الإنساني، وتدفعهما لكي ينسجا معطياتهما لصالح الإنسان وليس ضد الإنسان.

والنورسي في عروضه لمفارقة الإنسان والتقدم، يقف طويلاً عند الثمار المُرّة التي تمخضت عن مدنية لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا ترعى حرمة للإنسان أو حقًّا، وتعد الحروب الكبرى واحدة من أبشع هذه الثمار التي جرّعت البشرية ويلات وأهوالاً يصعب وصفها، وكان يمكن أن تتجنبها لو قدّر لها أن تضبط نشاطها العلمي والحضاري بمعايير الإيمان، وأن تلجم إغراء القوة بموازين الحكمة فلا تنفلت من عقالها وتضرب على غير هدًى، وأن تجعل الفردية والجماعية، أو المواطن والأمة، كفتي ميزان فلا تفرّط بأحدهما على حساب الآخر: "إن القانون الأساس لسياسة البشرية (التي لا تستهدي بهدي الله)، هو أن يُضحّى بالأفراد من أجل سلامة الأمة، ويُفدى بالأشخاص حفاظًا على الجماعة، ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن. فجميع الجرائم البشعة التي ارتُكبت في البشرية إلى الآن، إنما ترتكب بالاستعمال السيئ لهذه القاعدة التي ليس لها حدّ معين ولا ضوابط مخصصة... إن الحربين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القانون البشري الأساس، فأبادت نهائيًّا ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة، كما سمح هذا القانون بأخذ تسعين بريئًا بجريرة عشرة من الجناة وأفتى بإبادتهم، كما سمح بتدمير مدينة كاملة لجريمة مجرم واحد لأغراض شخصية مستترة تحت اسم المصلحة العامة".

وما يلبث النورسي أن يتقدم بالبديل القرآني الذي يضع الأمور -دائمًا- في نصابها الحق: "وهكذا وجدت عوضًا عن هذا القانون البشري الغادر، القانون الأساس للقرآن العظيم... وذلك في الآيتين: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(الأنعام:١٦٤). ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة:٣٢).

فهاتان الآيتان تؤكدان القاعدة الجليلة الآتية: لا يؤاخذ أحد بجريرة شخص آخر. ثم إن البريء لا يضحى به -حتى من أجل جميع الناس- دون رضاه، ولكن لو ضحى بنفسه بإرادته وبرضاه، فتلك مرتبة الشهادة. هذه القاعدة الجليلة هي التي ترسي العدالة الحقة في البشرية".

ثم يخلص إلى القول: "فما لم يؤخذ هذا الدستور قانونًا أساسًا، فإن المجتمع البشري سيتردى برجعية وحشية إلى أسفل سافلين، مثل الدمار الفظيع الذي ولّدته الحربان العالميتان". ودائمًا تجيء الحروب نتاجًا محتومًا للدستور الدنيوي الظالم الذي يتشبث به أهل الدنيا: "دستور الجدال والصراع وفي نطاق الحياة الفانية بأبشع صورها وأظلمها، حتى يُضحّى في سبيلها بالمقدسات الدينية حصولاً على حطام الدنيا، لذا يلقيهم القدر الإلهي في عذاب جهنم معنوية من خلال جرائمهم التي يرتكبونها". تلك هي سنة الله في خلقه فـ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(النساء:١٢٣)، ولقد أقام الغربيون الذين وضعوا بينهم وبين تعاليم السماء سدًّا، حياتهم على مفاهيم الغلبة والصراع، دون أن يضبطوها بموازين الحكمة والوفاق فكان هذا الذي كان.

موازين الاستبصار بهدي السماء

ومن خلال هذه الرؤية الصائبة التي تردّ الأمور كافة إلى موازين الاستبصار بهدي السماء، يؤشر النورسي على الأهداف الحقيقية للحرب: "فهذه الحرب المدمرة ليست لأجل إحقاق الحق وإرساء الحقيقة، ولا لأجل إعلاء شأن الدين وإقرار العدالة، بل تستند إلى العناد والعصبية القومية والمصلحة النوعية، وإشباع أنانية النفس، فترتكب مظالم شنيعة ومآسي أليمة لم يُرَ مثيلها في العالم"، ويضرب على ذلك مثلاً: "إفناء الأبرياء من أطفال وعوائل وشيوخ ومرضى بالقنابل المدمرة، بحجة وجود جندي أو اثنين من جنود الأعداء فيما بينهم"... بينما الإسلام بريء بلا شك من مثل هذه الحروب المدمرة التي لا تنسجم مع أي قانون كان من قوانين العدالة، ولا مع الإنسانية، ولا مع أي دستور كان

من دساتير الحقيقة وقوانين الحقوق.

ويرى النورسي -وهو محق في ذلك- أن أحوال العالم الحاضرة في جوانبها السياسية والاجتماعية، وفي حروبها بالأخص، إنما هي تجلٍّ من تجليات غضب الله النازل عقابًا لضلالة المدنية الحاضرة وسفاهتها التي مكّنت في القلوب الرغبات الفاسدة المضرة بدلاً من الحقائق الإيمانية الرفيعة النافعة. ليس هذا فحسب، بل إن العدالة الإلهية مضت لكي تنزل "بالمدنية الدنية التي أهانت الإسلام عذابًا أليمًا ومعنويًّا أرداها إلى درك الوحوش الجاهلين. فلقد أزالت تلك المخاوف المستمرة، ملذات وأذواق مدنية أوروبا والإنكليز مائة سنة، وأذهبت عنهم نشوتهم من الرقي والتسلّط على رقاب الآخرين ونشوة الاستيلاء عليهم. فلقد أذاقتهم العدالة الإلهية ذلك الخوف الرهيب، وقذفت على رؤوسهم قنابل الرعب والرهب والقلق والاضطراب".

يرى النورسي أنْ ليس ثمة منفذ للخروج من المأزق سوى "التقوى" بكل ما تنطوي عليه من خشية لله، والتزام بمطالب وحيه المنَزَّل من السماء، والتحقق بأقصى درجات الوفاق بين الإيمان والتحضّر، باعتبار الأخير فعلاً إيمانيًّا منضبطًا بمعايير العلم الإلهي.

والذي يقطع صلته بالسماء وبكلمات الله ووحيه الذي يضبط ويوجه ويرشّد، لا يمكن إلا أن يكون فاسدًا، والذي يزرع الشوك والحسك لن يحصد إلا المرّ والعلقم، فـ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾(النساء: ١٢٣)... تلك هي -مرة أخرى- سنة الله في خلقه، فلقد قامت الحضارة الأوربية -كما يؤكد النورسي- على أسس فاسدة، وادّعت أن كل ما أتاها هو من عندها كادعاء قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، ولم تشكر ربها الذي أحسن إليها بفضله وكرمه تعالى، ورجحت كفة سيئاتها على حسناتها حيث سقطت في الشرك بفكرها المادي الملوث. إن هذه الحضارة تلقت صفعة سماوية قوية بحيث أبادت ثمار مئات السنين من رقيها وتقدمها ودمرتها تدميرًا وجعلتها طعمة للنار.

ومع أهوال الحروب وخسائرها وويلاتها، سيل متدفق من التعاسات والعذاب في حضارة لا تعرف سوى اثنتين "اللذة" و"المنفعة"، وليس ثمة وراءهما أيما ضابط ديني أو أخلاقي على الإطلاق: "إن الشباب سيذهب حتمًا، فإن كان قد انقضى في سبيل الملذات ونشوة الطيش والغرور، فسيورث آلاف البلايا والآلام والمصائب الموجعة، سواء في الدنيا أو الآخرة. وإن كنتم ترومون أن تفهموا بأن أمثال هؤلاء الشباب ستؤول حالهم في غالب الأمر إلى المستشفيات بسبب تصرفاتهم الطائشة وإسرافهم وتعرضهم لأمراض نفسية... أو إلى السجون وأماكن الإهانة والتحقير بسبب نزواتهم وغرورهم... أو إلى الملاهي والخمارات بسبب ضيق صدورهم بالآلام والاضطرابات المعنوية والنفسية التي تنتابهم... إن شئتم أن تتيقنوا من هذه النتائج، فاسألوا المستشفيات والسجون والمقابر، فستسمعون بلا شك من لسان حال المستشفيات، الأنات والآهات والحسرات المنبعثة من أمراض نجمت من نزوات الشباب وإسرافهم في أمرهم... وستسمعون أيضًا من السجون، صيحات الأسى وأصوات الندم وزفرات الحسرات، يطلقها أولئك الشبان الأشقياء الذين انساقوا وراء طيشهم وغرورهم فتلقوا صفعة التأديب لخروجهم على الأوامر الشرعية".

وفي ضوء المبدأ القرآني: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾(الأنفال:٢٥)، يمكن أن ندرك ما يذهب إليه النورسي من أن كل إنسان في الوقت الحاضر، على الكرة الأرضية قاطبة، يتلقى نصيبه من المصائب الجارية إما قلبًا أو روحًا أو عقلاً أو بدنًا، ويعاني من العذاب والرهق ما يعاني، ولا سيما أهل الضلالة والغافلين عن الرحمة الإلهية الشاملة والحكمة الكاملة، فمن حيث إنسانيتهم وعلاقتهم بالبشرية، يتعذبون بالآلام الرهيبة المفجعة التي تعانيها البشرية في الوقت الحاضر، فضلاً عن آلامهم في أنفسهم.

"نعم، إن هذا العصر قد جعل حتى المسلمين، يستحبون الحياة الدنيا ويرجحونها على الآخرة على علم منهم ورغبة فيهم، كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾(إبراهيم:٣)". وراحت تقاليد العصر وقيمه المادية المنْبَتّة عن أسباب السماء تثقل كاهل الإنسان بمتطلبات الحياة، وتضيق عليه مواردها، وتحول حاجاته غير الضرورية إلى ضرورية بقوة التقليد وسلطته القاهرة، حتى أصبحت الحياة

والمعاش هي الغاية القصوى والمقصد الأعظم للإنسان الذي أقام بنزواته هذه سدًّا دون الحياة الدينية والأخروية والأبدية، أو في الأقل جعلها أمرًا ثانويًّا، لذا جُوزي على خطئه هذا بلطمة قوية شديدة حولت دنياه جحيمًا لا يطاق.

"نعم، إن هذا العصر الذي رُفعت منه البركة من جرّاء الإسراف المتزايد، وعدم مراعاة الاقتصاد، ومن عدم القناعة مع الحرص الشديد، فضلاً عن تزايد الفقر والحاجة والفاقة وهموم العيش، مما سبّب جروحًا بليغة في تطلع الإنسان للعيش، وفي نزوعه لحفظ الحياة علاوة على تشعب متطلبات الحياة المرهقة، زد على ذلك استمرار أهل الضلالة بتوجيه كل الأنظار إلى الحياة... كل ذلك عمّق تلك الجروح حتى دفع الإنسان إلى تفضيل أدنى حاجة من حاجات الحياة على مسألة إيمانية عظيمة".

والحق -كما يؤكد النورسي- أن الكفر والضلالة تحقير عظيم للكائنات وظلم شنيع للموجودات، ووسيلة لرفع الرحمة الإلهية ونزول المصائب والبلايا، ليس هذا فحسب، بل إن المدنية الغربية برؤيتها المادية الذرائعية الصرفة، مارست تمزيقًا قاسيًا للعديد من المجتمعات التي تنتمي إليها ما بين بورجوازيين مترفين وفقراء مدقعين، الأمر الذي هيأ الأجواء لاشتعال صراع قاسٍ بين الطرفين، تمخض عن المزيد من المصائب والويلات، فتحت سطوة المدنية الغربية المستبدة، المتميزة بإثارة سوء الاستعمال، والدفع إلى الإسراف، وتهييج الشهوات، وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية في حكم المطالب والحاجات الضرورية... فقد أصبح الإنسان العصري من حيث حب التقليد والإدمان، مفتقرًا إلى عشرين حاجة، بدلاً من أربع منها ضرورية. وقد لا يستطيع إلا شخصان من كل عشرين شخصًا، أن يلبوا تلك الحاجات العشرين من مصدر حلال بشكل مباح، ويبقى الآخرون الثمانية عشر محتاجين وفقراء.

فهذه المدنية الحاضرة إذ تجعل الإنسان فقيرًا جدًا ومعوزًا دائمًا، ولقد ساقت البشرية -من جهة تلك الحاجة- إلى مزيد من الكسب الحرام، وإلى ارتكاب أنواع من الظلم والغبن، وشجّعت طبقة العوام المساكين على الصراع والتخاصم المستمر مع الخواص، وذلك بهجرها القانون الأساس الذي سنَّه القرآن الكريم القاضي بوجوب الزكاة وتحريم الربا، والذي يحقق بواسطتهما توقير العامة للخاصة، ويوفر بهما شفقة الخاصة على العامة. فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت البورجوازيين على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم، وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرّد في معاملتهم معهم، فدمّرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها واطمئنانها وجعلتها أثرًا بعد عين.

باختصار شديد، فإن المدنية الغربية الراهنة، بسبب سلوكها طريقًا مناقضًا لأسس دساتير السماء، وقيامها بمناهضتها، فقد طفح سيل سيآتها على حسناتها، وثقلت كفة أضرارها على فوائدها. فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاختل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها.

"نعم، إن المدنية الدنية الظالمة قد عُوقبت بكفرانها بالنعمة الإلهية وعدم إيفائها الشكر لله، تجاه ما أنعم عليها سبحانه من الخوارق الحضارية، لصرفها تلك الخوارق إلى الدمار حتى سلبت سعادة الحياة كليًّا، وأردت الناس الذين يعدون في ذروة الحضارة والمدنية إلى أدنى دركات الوحوش الضالة، وأذاقتهم عذاب جهنم قبل الذهاب إليها".

وليس ثمة منفذ للخروج من المأزق سوى "التقوى" بكل ما تنطوي عليه من خشية لله، والتزام بمطالب وحيه المنَزَّل من السماء، والتحقق بأقصى درجات الوفاق بين الإيمان والتحضّر، باعتبار الأخير فعلاً إيمانيًّا منضبطًا بمعايير العلم الإلهي: "ففي هذا الوقت الذي يتّسم بالدمار الأخلاقي والروحي، وبإثارة هوى النفس الأمّارة، وبإطلاق الشهوات من عقالها، تصبح التقوى أساسًا عظيمًا جدًّا، بل ركيزة الأسس، وتُكسِب أفضلية عظيمة؛ حيث إنها دفع للمفاسد وترك للكبائر... وحيث إن التيارات المدمرة أخذت تتفاقم في هذا الوقت، فقد أصبحت التقوى أعظم أساس وأكبر سدّ لصدّ هذا الدمار الرهيب". ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

المصادر:

(1) الملاحق في فقه دعوة النور، لبديع الزمان سعيد النورسي، ، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

قصة

صابر عبد الفتاح المشرفي*

ألديك دواء يا طبيب؟

حدثني أحد تلاميذ الأستاذ فتح الله كولن قائلاً:

تحلق الطلاب كالعادة في موعدهم انتظارًا لخروج الأستاذ للدرس في الصباح. تأخر الأستاذ عن الموعد ثم ما لبث أن أطل علينا من غرفته بوجه غير الوجه المعتاد.. وجه تعلوه أمارات الأرق وقلة النوم، فعلِمْنا أن خطبًا ما قد أقضّ مضطجعه، وما أكثر ما يقض ذلك المضطجع.. فما كان ليهنأ جنبُ الأستاذ يومًا باستقرارٍ وبين حنايا صدره ذلك الكائن المرهف الحساس المسمى بالقلب؛ ذلك الذي يعاني -إلى جانب أوجاعه الحسية- أوجاع هموم أمته وانزعاجه لأدنى ملمة تلم بها.. انزعاجًا يجافي بين عينيه والوسن، ويخلّف وراءه تضاريس الأرق والهموم على محيا نسي الابتسام أو كاد.. بل إننا بتنا نستطلع الحوادث التي تلم بالأمة عبر وجه الأستاذ سائلين الله أن يمن علينا بخبر سعيد أو بشرى سارة تعقد سلامًا بين وجهه والارتياح والسرور.

خرج علينا بذلك الوجه وجلس مستويًا على كرسيّه، ثم بدأ يتفرس وجوهنا وجهًا وجهًا، مرة من اليمين إلى اليسار، وأخرى من اليسار إلى اليمين.. فسادَ المكان صمت رهيب.. صمت تكاد تنخلع له القلوب. وحدثتني نفسي لحظتها أن هذه النظرات الفاحصة ستعقبها مكاشفة تبلي السرائر وتشف عن المكنون في الضمائر.. ألم يقولوا:

قلوب العارفين لها عيون*** ترى ما لا يراه الناظرون

فاستعنت باسم الله السّتّير، ثم استعدت رباطة جأشي من جديد وتمتمت في نفسي: ما بالي أنزعج كل هذا الانزعاج؟ ألم أعش مثل هذه اللحظات عشرات المرات طوال سني دراستي معه؟ فما الجديد هذه المرة؟ ثم توارد على عقلي خاطر آخر وهو: ما الذي كان يتفرسه الأستاذ في وجوهنا؟ أتُراه كان يتأمل تلك العيون التي ارتوت بالنوم طيلة الليل فأصبحت نضرة كأن لم يحدث في الكون شيء، فيرتد إلى نفسه هامسًا: ما بالي أسهر وآرق وينام هؤلاء ملء جفونهم؟! أم تُراه كان يبحث عن جفون صبغها الليل بحمرة الأرق فباتت تئن وتتقلب على فراش من الشوك كما بات هو؟

أحسب أنه قال في نفسه: أليس هؤلاء طلابي؟ أولم أربّهم على عيني كما تربي الأم الرؤوم وليدها؟ أولم أورثهم محبة الله ورسوله وأعهد إليهم بحمل مسؤولية هذه الأمة؟ أولم أزرع فيهم جاهدًا هَمَّ تبليغ هذا الدين إلى كل مكان تشرق عليه الشمس أو تغرب كما أرشدنا الحبيب المصطفى ﷺ؟ أفلا يرون العالَم من حولهم وهو يموج موج البحر المتلاطم؟ متى سنبني حضارتنا؟ متى سنقيم صرح روحنا؟ ما لهم لا يأرقون كما آرق أنا؟

وفي تلك اللحيظات التي كانت تتقاذفني فيها هذه الخواطر، شق أسماعنا صوت الأستاذ بنبرة ملؤها الأسى قائلاً لطبيبه الذي كان يجلس بيننا: "يا طبيب، ألَديك دواء يُخمِد المشاعر والأحاسيس؟ أفي الطب دواء كهذا..؟ دواء يجعل المرء لا يبالي ويواصل في نوم عميق حتى لو جرفت السيول كل مكان، والتهمت الحرائق الأخضر واليابس، وزُلزلت الأرض زلزالها وقامت القيامة..؟".

أطرق الطبيب ولم ينبس ببنت شفة، فتابع الأستاذ حديثه: "سكوتك ينبئ عن جوابك". ثم أردف: "إن لم يكن في الطب دواء كهذا، فتلك منقصة في حق الطب... اقرأ يا فلان"... ثم بدأ الدرس. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

نور الدين صواش*



من أوصاف الإمام العثماني

أبدى العثمانيون احترامًا كبيرًا لشعائر دينهم الحنيف وقيمه الحضارية الإنسانية... فقد عملوا جاهدين على تبليغ هذا الدين وتحبيبه إلى الناس بطرق شتى؛ فشيدوا -على سبيل المثال- المساجد العظيمة التي تهوي الأفئدة إليها وتنبعث فيها الراحة والطمأنينة... ثم إنهم اعتنوا اعتناء شديدًا بالقائمين على هذه المساجد من مؤذنين وقراء وأئمة؛ فعيّنوا لها مؤذنين ومقرئين يتمتعون بأصوات جميلة ندية تخشع لها القلوب... ويتقنون في الوقت نفسه المقامات والإيقاعات الصوتية كلها؛ وقد طُلب من مؤذني المساجد السلطانية الكبرى آنذاك، أن يرفعوا أذان كل صلاة بمقام مختلف عن الآخر... فكانوا يرفعون أذان الفجر بمقام الصبا، وأذان الظهر بمقام الرصد، والعصر بمقام الحجاز، والمغرب بمقام السيكا، والعشاء بمقام العشاق... وقد راق هذا العمل لأهل إسطنبول واستقبلوه بالحمد والثناء؛ لأنهم استمتعوا بهذه الأصوات الجميلة من جانب، وتمكّنوا من معرفة الوقت خلال اليوم من مقام الأذان المرفوع من جانب آخر.

وبالاطلاع على المعلومات الواردة في وثائق الأوقاف العثمانية -ومنها وقفية السلطان سليمان القانوني- عن أوصاف الإمام الذي يتم تعيينه في أحد المساجد السلطانية الكبرى، نرى أنه كان لابد للإمام الأول في مسجد السليمانية أو السلطان أحمد، أو مسجد هُرَّم سلطان في تلك الآونة -فضلاً عن علمه- أن يجيد أربع لغات؛ فإلى جانب إجادته الفارسية والعربية كان عليه أن يعرف لغة شرقية وأخرى غربية، وبالإضافة إلى ذلك أيضًا كان يُطلب منه أن يكون متقنًا للمقامات الصوتية كلها. ■



النملة السوداء

خبيرة الأرصاد الجوية

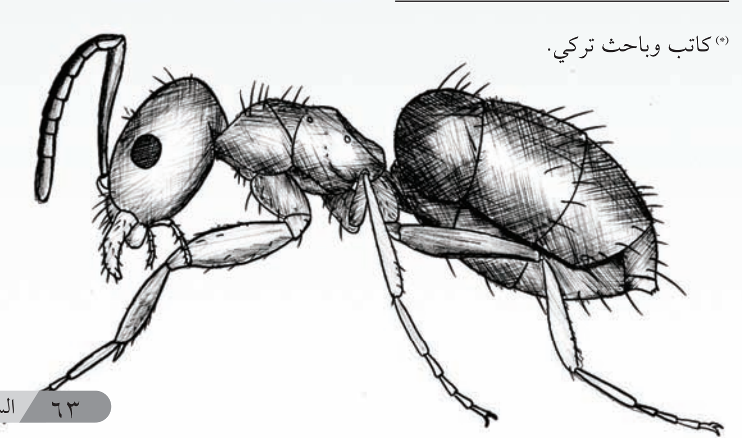
إذا كان خبراء الأرصاد الجوية -من البشر- يعتمدون على الأجهزة الدقيقة في تنبؤاتهم التي تصيب وتخطئ، فإن هناك نملة تقيس درجة حرارة الجو بدقة فائقة لا تخطئ أبدًا!

بينت الدراسات العلمية أن النملة السوداء في الصحراء، قادرة على التنبؤ بتقلبات الجو وتقلب درجة الحرارة الجوية وهي على عمق أربعة أمتار من سطح الأرض! فتخرج من مخابئها بحثًا عن طعامها في حرارة جوية تتراوح ما بين ٤٥-٥٥ درجة. وهكذا تغتنم هذه الحشرة فرصتها في جمع طعامها ضمن هذا المدى الحراري، وتقضي حياتها المتبقية في مخابئها.

ولكن ما السبب الذي يدفع هذه النملة لأن تتبع هذه الطريقة العجيبة؟ السبب هو أنها تخاف من مواجهة نوعٍ من السحليات يدعى "Acanthodactylus dumerili"، لأنها تشكل الفريسة المفضلة لهذا النوع من السحليات، علمًا بأن هذا الحيوان لا يستطيع أن يخرج من جحره إذا ما بلغت حرارة الجو ٤٥ درجة!

فمَن أعطى هذه النملة القابلية على قياس درجة الحرارة الجوية بهذه الدقة؟ وكيف علمت هذه النملة أن الحيوان الذي يفترسها، لا يقدر على الخروج من جحره في هذا المستوى من الحرارة؟! ■

(*) كاتب وباحث تركي.





التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca /
Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27
hira.cezayir@yahoo.com

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع ٤٨ منزل رقم ٣١ – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



مؤتمر دولي
مستقبل الإصلاح
في العالم الإسلامي
خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية
جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩



دار النيل


حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com
الناذرون أنفسهم
إِنْ للحق نذرتَ نفسك،
فامضِ في طريقك...
لا تَوْجَلْ...
فمن ورائك قوة تسندك...
عنك لن تتخلّى،
وفي وسط الطريق لن تتركك.
* * *
تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار
ISSN 1306-1879
9 771306 187009 29
www.hiramagazine.com